

مصر الظافرة

صفحة في تاريخ وادي النيل القومي



تأليف

الدكتور عبد الرحمن زكي

١٩٩٧ - ١٩٩٨م





مِصْر الظَّافِرَةُ

الناشـــــر : مكتبة ومطبعة الغد

العـــنوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - امبابة - جيزة

تليـــفون : ٣٢٥٠٢٠٢

رقم الإيـداع : ٩٧/٨٥٩٤

الترقيم الدولى : 0 - 04 - 5819 - 977

الغـــلاف : مجدى بكر

طبعة جديدة

١٤١٩هـ/١٩٩٩م

دراسات تاريخية

مصر الظافرة

صفحة من تاريخ وادى النيل القومى

تأليف
الدكتور عبد الرحمن زكى

الناشر
مكتبة ومطبعة الغد

« ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا فى بعث وطننا من جديد، وفى التقدم به نحو الكمال الإنسانى ، ذلك الكمال الذى ظل على تناحر الشعوب واختلاف الفلاسفة فى جميع الأقطار والأزمان، منذ كان أرسطو حتى ليوتولستوى ، ظل حلم العصور الكثيرة المتعاقبة ، والمنارة اللامعة المغرية فى آفاق البشرية السامية » .

المؤلف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقـــدمة المؤلف

لكى يفخر الإنسان بوطنه ، ويزهو بالانتساب إليه ينبغى عليه قبل كل شىء أن يعرف هذا الوطن .

فالوطنى يستشهد فى سبيل بلاده التى يحبها ، فقد نشأ فى كنفها وترعرع تحت سمائها ، لذلك حرى بنا أن نعرف وطننا حق المعرفة لكى نحبه . . . فإذا عشقناه فديناه بأرواحنا ورويناه بدمائنا .

ولا ريب أن معرفة بلادنا من كل نواحيها فى مقدمة الواجبات الوطنية ، نحس بجمالها ، ونشعر بمجدها وبعظمتها . . . نعرف مصر الفرعونية ، ومصر الإسلامية ، ومصر محمد على وإسماعيل وفؤاد والفاروق . . . فإذا ألممنا بكل الحقائق المتصلة ببلادنا ذكرنا أمجادها وتراثها .

لنذكر أيام منف وعين شمس وطيبة ، عواصم وادى النيل القديمة ، ولنستوعب ما كانت عليه الإسكندرية والفسطاط ، ولنعد بأذهاننا إلى تلك الأيام السالفة لما كانت القاهرة عاصمة دولة كبرى .

ولنتخيل عهد الفواطم الذين رفعوا مصر إلى مصاف الدول العظيمة ، بل فى طليعتها . . لما كان البحران الأبيض والأحمر بحيرتين مصريتين ، ولنتصور عهد صلاح الدين وبيبرس وقايتباى ، لما تزعمت مصر الشرق والغرب ، فى الحضارة والمكانة والسلطان .

ولنعرف أنه كانت لمصر عظمة وجبروت ينبغى العمل على استرجاعهما ، ولنؤمن برقى ماضينا لكى نثق بأنفسنا ، فإذا لم نؤمن بقوة ماضينا . . . هيهات أن نثق بمستقبلنا ، ولنشعر - لا لنحفظ فقط - أن لبلادنا تاريخاً خالداً مجيداً ، ولندرس هذا التاريخ دراسة مشبعة بالوطنية ، لكى نلم بمجد الوطن الذى نعمل ونموت لأجله .

كانت مصر فى عهد الأقدمين سيدة العالم على الإطلاق ، فهى فى أيام الفواطم والأيوبيين كانت أقوى دول الشرق والغرب ، وفى عهد السلاطين المماليك كنا مسيطرين على زمام البحرين ، وفى عهد محمد على الكبير رفعنا أعلامنا على كريت واليونان والأناضول وكل ما جاورنا ، وإلى عهد إسماعيل كانت دولتنا تمتد إلى منابع النيل التى اكتشفها رجالنا وامتدت كشوفهم إلى المحيط الهندى .

هذا كله . . يجب أن يذكر ولا ينسى ، هذا كله ، ينبغى أن نبثه فى دمائنا ورؤوسنا وننقشه فى قلوبنا وصدورنا ، وأن نترسمه أمام أعيننا وفى خطواتنا . . . فمصر ، مصر العزيزة ، أحق الأمم بالمفاخرة بما قدمته لدول العالم طرا . .

مصـــر العزيزة لى وطـن　　　وهى الحـمى وهى السكـن

وهـى الفـريدة فـى الزمن　　　وجـــميع ما فيهــا حسـن

لســمائها الصيت البعيد　　　ولأرضها الخصب المجـيد

ولنيلهـا الوافى السـعيد　　　كـــل الأيــادى والمـــنن

* * *

نحـــن

سلوا عنا أهل العلم ، وأهل الأدب ، بل وأهل الحضارة ، فإن عندهم جميعاً خبراً من بطولاتنا وتضحياتنا ومفاخرنا وأمجادنا وعلومنا وآدابنا وفنوننا .

فقد حملنا المنار الهادى والأرض تتيه فى بيداء الجهل ، وقلنا لأهلها : هذا هو الطريق . . . فجرى العالم من خلفنا ، يقتفى آثارنا .

نحن نصبنا موازين العدل يوم عمّ العالم الظلم والطغيان وبنينا للعلم داراً يأوى إليها حين شرده الناس عن داره .

نحن بناة منفيس وطيبة واسكندرية والقاهرة . . انتقلت حضارتنا إلى الشرق وإلى الشمال وإلى الغرب وإلى الجنوب ، نحن شيّدنا جامعة عين شمس واسكندرية والأزهر ، وعمّرنا مساجد دمشق والقاهرة والقدس والخرطوم ، نحن علمنا أهل الأرض وكنا الأساتذة وكانوا التلاميذ . . منّا مينا وأحمس وتحوتمس

ورمسيس ، منّا السلاطين والأمراء والملوك . . . تنظم فى مفاخرنا مائة إلياذة وألف شاهنامة ، ثم لا تنقضى أمجادنا ولا تفنى ، لأنها لا تعد ولا تحصى . . .

من يعد معاركنا المظفرة التى خضناها ، ومن يحصى مآثرنا فى العلم والفن ؟ من يستقرى نابغينا وأبطالنا . .

من له جدود كجدودنا ، فراعنة ملأوا الأرض عزة وعلماً وفلسفة وفناً وفتحاً ، وعرباً خلدوا على الزمن مبادىء الرجولة والكرامة ، وأذاعوا فى أرجاء العالم أسرار العلوم والفنون . .

من . . . من . . . من . . . ؟

من له ماض كماضينا . . . لن تعوزه المثل . . .

* * *



مصـــر العظيمة

هكذا كانت مصر عظيمة بماضيها ، كانت نبراساً للحضارات ومعهداً للعلوم ومستقى للفنون ، ظلت أجيالاً طويلة تحمى الشرق من عدوان الغرب ، فبهرت جميع أمم تلك الأجيال بحضارتها ومجدها .

مصر أسبق أمم العالم إلى ميادين العلم والنور فى وقت كانت روما وأثينا وأسبرطة ترقد فى أحضان الخمول والجهل ... مصر هى التى رفعت مشعل الحضارة للجنس البشرى واختطت له وسائل حياته .

مصر أول بلاد العالم جرت فى طرقاتها وصحاريها ووديانها العربات الحربية تحمل الأبطال الظافرين ... أحمس ، وتحوتمس ، ورمسيس ، وبسماتيك ، وصلاح الدين ، وإبراهيم .

عمر التاريخ المصرى ستة آلاف سنة على وجه التقريب ، وهذه المدة هى تاريخ الجيش المصرى أيضاً ، وعلى عاتق جنود أبناء النيل عاشت مصر أمة مستقلة ، وفى هذا الوادى السعيد تدفقت جحافل الجيوش المصرية لترفع علم مصر عالياً بين الأمم ، ولم تكن الرغبة فى توسيع الرقعة المصرية الدافع الأصلى للفتح والسلطان ، بل إن المصريين فى توسعهم كانوا أبداً دائبين للوصول إلى الحدود الطبيعية .

اندفعت الجيوش المصرية منذ القدم نحو هضاب آسيا الصغرى وروابى الشام وبادية شبه الجزيرة والصحراء الليبية وأعالى النيل إلى المحيط الهندى .

لقد لقنونا ونحن تلامذة صغار حقائق طبيعية أو تاريخية طبعت فى أذهاننا صوراً تافهة عن الوطن المصرى ، ولم يحفل أحد فى العصر الحديث بتصحيح ما كتب مع أننا فى حاجة لمن يكتب لنا تاريخاً فى صور شعبية تفهمه كل العقول وتحفظه كل القلوب .

هذا التاريخ المجيد الذى إذا أحييناه ووعيناه لوضعنا أسس مستقبل أمجد وأبهى نؤسسه على ما فات ونصل به حاضرنا بماضينا .

ساعدت الطبيعة الجغرافية بلادنا أعظم مساعدة ، فكان من أشق الأمور وأصعبها إغارة الجيران المعادين عليها ، وكانت صحراء ليبيا سداً منيعاً لكل غارة من جهة الغرب ، على حين أن سواحلها الشمالية لم تعرضها لأى خطر .

ففى ذلك العهد من تاريخها لم يكن لها أعداء أصحاب أساطيل قوية تهاجم شواطئها المكشوفة ، أما الأقوام الذين يقطنون وراء حدودها الشرقية والجنوبية ، فإنهم كانوا أقل منها ثقافة ومدنية ، فكان خطرهم على تهديد سلامتها شيئاً لا يحسب له حساب ، ومرت على مصر فترات خمول أيضاً كالتى مرت على جميع شعوب العالم ، فليست هناك أمة خلقت قوية وظلت قوية طول حياتها ، بل ما من شك أن كل أمة قوية يتنابها بعض عوامل الضعف ، ومصر إحدى هذه الأمم غزتها أقوام كان أولهم الهكسوس ، فدانت لهم الأرض المصرية ، ولكن لم تعترف بسلطانهم على النفوس ، ثم أعقب احتلالهم نهوض وتجديد وتحسين ، فأضاف المصريون تراثاً جديداً ، وأخذوا عن المحتلين بعض فضائلهم .

وإذا عدنا إلى عصر ما قبل التاريخ فسنجد مصر وقد غمرتها الحروب الداخلية والخارجية ، لأن ذلك لا ينافى طبيعة البشر ، وقد عثر على بعض ألواح ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ يستدل منها على قيام حروب بين المصريين وبدو الصحراء وأهل بلاد النوبة ، وكان النزاع لا يقف بين سكان الوجهين القبلى والبحرى إلى أن وحدت الأرضان فى عهد الملك مينا ، وقد عثر فى هيراكنبوليس على نقوش ملونة يرتد عهدها إلى ما قبل عهد الأسرات ، وهى موجودة الآن فى المتحف المصرى يشاهد عليها بعض المحاربين القدماء وهم فى ساحة القتال ، وتدل كيفية تسليحهم دلالة واضحة على تقدمهم فى فنون الحرب ، مما يثبت وجود جيش فى البلاد ، إذ نجد أن المحارب كان مسلحاً بحربة فى نهايتها قطعة من الظران الحاد المدبب أو من العاج ، وكان يحمى الجندى منهم زرد أو درع مصنوع من جلد الفهد .

* *

إن طبيعة مصر منذ القدم لا تسمح لها إلا أن تكون أمة متحدة ، فهى من بين بلدان العالم القليلة التى يغذيها نهر عظيم يجرى من الجنوب إلى الشمال ، وأملت طبيعتها عليها أن يحكمها رجل واحد ، فرأينا منذ فجر التاريخ أميراً

مصرياً أصبح فيما بعد الملك « مينا » : أسس ملكاً عظيماً شيّده على أنقاض الحكومات المحلية ، فكان الرجل الأول الذى حكم مصر ولم يكفه تأسيس هذا الملك ، بل جعل حب الوطن إيماناً راسخاً فى قلوب مواطنيه ، وجعلهم يؤمنون بأنهم أبناء وطن واحد .

لا نعرف تماماً كيف اتحدت مقاطعات الدلتا وألفت منها دولة الشمال ، وكيف اتحدت أقاليم الصعيد وكونت دولة الجنوب ، ولكن مما لا شك فيه أن هذا الاتحاد لم يتم بدون حرب ، ومن المحتمل أن تكون أول معركة مصرية حاسمة هى المعركة التى نشبت بقيادة « مينا » أول فراعنة الأسرة المصرية الأولى ، لما غزا البلاد الشمالية وأخضعها لسلطانه ، وقام بعد ذلك بتثبيت عاصمة ملكه الجديد فى ذلك الموقع الهام « منف » عند رأس الدلتا بالقرب من ضاحية القاهرة القبلية «حلوان» الحديثة ، واختلفت الآراء حول المعركة الأولى ، وعن نوع الحروب التى تبعتها ، وهل كانت حروباً تشبه المعارك التى تقوم بين القبائل وبعضها ، أو كانت حروباً حقيقية كالتى عرفتها مصر أثناء القرون الطويلة . . . إننا نستنتج مما كشف من الآثار أن تلك المعارك القديمة كانت منظمة بلغ عدد ضحاياها (٦٢٥ قتيلاً) و(١٤٢ أسيراً) ، وأنه كانت تسودها روح حربية قوية .

وقد ترك لنا الفراعنة الإِول أدلة كثيرة تشهد بروح الاقتتال التى سادت حروبهم، فإننا نشاهد تذكاراً لانتصارات الملك نارمر (مينا) مدونة على لوحة كبيرة من الشيست على أحد وجهيها يُرى رافعاً دبوسه ليضرب به أسيراً ، ربما كان من سكان الدلتا ، والمنظر الرئيسى على الوجه الثانى يمثل الملك سائراً مع أتباعه ليشرف على الأسرى المذبوحين ، وقد سار حاملو أعلام المعبودات المختلفة أمام الملك ، ويرى تحت هذا المنظر حيوانان خرافيان خاصان بالعصر العتيق ، وقد مثل الملك فى الأسفل على هيئة ثور يهدم قلعة استولى عليها .

ولم يكن إخضاع إمارات الشمال أمراً سهلاً ، فإننا نعلم أن الثورات الداخلية كانت تنشب بين حين وآخر ، وكانت أعمال العنف مستمرة إلى أيام الأسرة الثالثة المصرية ، ونستنتج من قصص الأسرى المنقوشة على كثير من الآثار القديمة عدة أمور متعلقة بحروب الدولة القديمة .

إن اتفاق بعض المؤرخين على أن مصر تمتعت بنعيم السلام أحقاباً طويلة حتى

غزا الهكسوس الدلتا أمر يتطلب التمحيص ، على أنه مما لا شك فيه أنه ليس فى الديانة المصرية إشارة أو نصوص تحرم الحرب وتلغيها ، ولم تخرج مصر للعالم منذ القدم نبياً أو مصلحاً كـ « أزوكا » أو « لاوتس » هاجم فى تعاليمه أو وصاياه الحرب ، فقد كان فراعنة مصر أبطالاً محاربين يتباهون بجنودهم فيما دونوه على نقوش الجرانيت ، وكانوا يحبون الموت فى سبيل الدفاع عن أوطانهم أو عندما يقاتلون دولة معتدية ، وكانت الآلهة المصرية تحبب إلى الفراعنة القتال ومخاصمة الأعداء ، كما أنها ألهمتهم الانتصار . وأن المعابد والهياكل القديمة التى شيّدها الملوك المصريون بعد عودتهم ظافرين من ساحات القتال لخير شاهد على تمجيدهم للحرب ، فقد كانت عقيدة سامية حازت رضا الآلهة ، ولئن كان هناك نعيم دنيوى ، فلا شك أن مصر كانت جنة هذا النعيم . . فجوها المعتدل وسماؤها الصافية وجمال طبيعتها الدائم وشمس شتائها الساطعة تضاف إلى تلك الخيرات هبة نيلها السنوية ، كل هذه الفضائل جعلت مصر وحيدة فى فضائلها ، مطمئنة فى حياتها وبصحرائها صارت بعيدة عن جشع أعدائها ، وكانت الصحراء كما هى اليوم على ضفتى وادى النيل حارسة لمصر تحميها من أعدائها . . فى عصر كان بحر الروم لا يحمل على صدره مشكلات المدرعات وحاملات الطائرات كما غدا اليوم ، فلماذا أراد المصريون الحرب وهم يتمتعون بهذا النعيم ، وما الذى دفع جيوش مصر لفتح بلاد الدول المجاورة ؟؟

لقد كان لزاماً على أهل مصر أن يحافظوا بحياتهم وبكل عزيز يملكونه على هذا الشريط السندسى الذى ما زلنا إلى اليوم نحميه ونقيه بكل عزيز . . يحمونه من غارات أهل البادية والقبائل الهمجية من أهل الجنوب ، ومن هنا نشأ أول تدريبهم على القتال بعد أن ألفوا وحدتهم . . نعم وحدتهم القومية .

* *

● الأسرات الثلاث الأولى :

ولا نعلم شيئاً كثيراً عن جيش الملك « مينا » بعد قضائه على حكم الأمراء ، ومنذ أصبحت مصر كلها فى قبضته ، وليس لدينا من الآثار ما يدلنا على وجود جيش موحد للبلاد المصرية قبل عهد الملك « زوسر » مؤسس الأسرة الثالثة ، فإنه لما وطد السلطة الإدارية فى يده كان يعتمد على جيش أشرفت عليه إدارة منظمة ،

والملك « زوسر » أول من نظم وسائل الدفاع عن مصر ، فقسم حدود البلاد إلى مناطق أطلق عليها اسم : « أبواب المملكة » ، وجعل فى كل منها حامية ، وعين على كل من هذه المناطق حاكماً خاصاً يلقب بـ « مرشد الأرض » ، وكانت لهؤلاء الحكام الكلمة العليا على حكام المقاطعات ، وكان فى يدهم إدارة الشرطة كل فى مقاطعته ، ولذلك كانوا مسئولين عن النظام والأمن فى هذه المناطق ، وكانت حاميات تلك المناطق تخضع مباشرة لهذا الموظف ، وقد شيّدت لتلك الحاميات العسكرية حصون منيعة لحماية الأقاليم والدفاع عنها ، وكان فى كل حصن قوة من الجند تقوم بأعمال الخدمة وتخزين مؤنة تكفى الجند مقاومة الحصار مدة طويلة ، وقد حفظت لنا أسماء بعض هذه الحصون منذ الأسرة الثانية ، فقد عثر فعلاً على خاتم نقش عليه اسم حصن (سخر حتب) ، وكذلك عثر على اسم حصن آخر من الأسرة الثالثة نقش على خاتم لكاتبْ هذا الحصن ، ويطلق عليه اسم بطولة الأرضين .

وإذا لم يبق الزمن على مخلفات بعض الحصون المصرية التى شيّدت خلال الدولة القديمة ، إلا أن شواهد الأحوال تدل على أنه أقيم فى العرابة حصن من أقدم الحصون المصرية ، وقد عرف المصريون القدماء كيفية انتخاب المواقع الحسنة لبناء تلك الحصون والمعاقل ، فكانوا يقيمونها فى الأماكن التى يرون أنها معرضة لخطر الغزو ، أو أنه يمكن أن يصد العدو منها بسهولة كمخانق النهر ، حيث تضيق الجبال على كلا جانبى الوادى ، أو عند بداية الوديان التى تشرف على الصحراء مباشرة ، والتى يسهل على البدو وغيرهم أن ينقضوا منها على البلاد وينهبوا منها ما يشاءون .

كانت كل هذه الحصون (أبواب المملكة) مقامة على طراز واحد ، لا تختلف بعضها عن بعض فى مقدار مساحة كل حصن وسمك جدرانه الخارجية ، وكان تخطيط الحصن يشبه سطحاً متوازى الأضلاع ، وكان سوره الخارجى فى أغلب الأحيان مقسماً إلى دعامات عمودية من المبانى تربطها مداميك البناء بالطوب النى .

وقد حمى المصريون القدماء بلادهم بما شيّدوه من الأسوار الضخمة فى النقط الضعيفة من الحدود ، فقد أقام الملك « زوسر » سوراً من أسوان إلى الفيلة يبلغ

طوله نحو (١٢ كيلومتراً) يضمن سلامة حدوده الجنوبية ، ويعتقد بعض علماء الآثار أن السور العظيم الذى أقامه « أمينمحعت الأول » لسد برزخ السويس فى وجه المغيرين لم يكن إلا تجديداً لسور أقيم فى عهد الدولة القديمة ، وقد خلّد الملك « سنفرو » اسمه ضمن أسماء عدة قلاع فى هذه المنطقة ، فكان أول من حمى حدود مصر الشرقية ، وشيّد الملك سنفرو إبان حكمه بعد انتهائه من محاربة الزنوج سلسلة منظمة من الأعمال الدفاعية فى شمال مصر وجنوبها ، وقد عرفت تلك الحصون بقلاع سنفرو .

* *

● الجيش فى الدولة القديمة :

كان الجيش بطبيعة تكوينه خاضعاً للملك ، وكانت وحدة القتال يطلق عليها «عبر » تتكون من الجنود الشبان ، ويقود الوحدة ضابط برتبة « خرب » ، وكثيراً ما كنا نرى هذه الرتبة تطلق على الموظفين الإداريين الذين توضع تحت نفوذهم فئة من الناس ، وكان يطلق على رئيس الوحدة العسكرية المذكورة قومندان بلوك المجندين « الجنود » ، وقد وقفنا على هذه الرتبة من خاتم للأسرة الثالثة [١] .

وفى أواخر أيام الملك « سنفرو » من ملوك الأسرة الثالثة بلغت مصر درجة رفيعة من الرقى ، فقد أخضع بدو سيناء خضوعاً تاماً ، وسجل انتصاراته على صخورها ووطد سيادة مصر على تلك الأقاليم ، وقد اعتبر فى العصور التالية المؤسس الأول لنفوذ مصر فى سيناء ، ومما لا نزاع فيه أنه كانت هناك عدة وظائف إدارية يشغلها رجال من الجيش أو بالعكس ، بمعنى : أن السلطتين العسكرية والإدارية كانتا مندمجتين أحياناً ، والدليل على ذلك لقب مدير « إمرا » الذى كان يحمله قائد الجيش هو لقب مدير الجيش « إمرا مشع » أى : أنه كان القائد الفعلى للجيش ، وقد تألف الجيش من عدة فيالق كل منها على رأسه قائد جيش « أمرا مشع » ، وكل هذه الفيالق كانت تحت إمرة رئيس أعلى يطلق عليه: « قائد الجيوش الأعلى » ، وكان يتقلد هذه الوظيفة رجل من أكبر عظماء الدولة.

ففى عهد الأسرة الثالثة كان يحمل هذا اللقب اثنان : أحدهما : « رع حتب » أحد أولاد الملك ، والثانى : « نيسوزدف » ، وهو أمير ملكى .

---

(١) الدكتور سليم حسن : مصر القديمة ، جـ ٢ .

وفى عهد تلك الأسرة كانت الإدارة العسكرية تسمى « بيت الأسلحة » ، وكان مهمة هذه الإدارة الإشراف على تسليح الجيش وتموينه وأعماله الكتابية .

* *

● **الأسرة الرابعة (٢٩٠٠ ق . م - ٢٧٥٠ ق . م) :**

شغل ملوك هذه الأسرة ببناء أهراماتهم ، فلم تصلنا أنباء فتوحاتهم ، ولكن النظام الإدارى للجيش كان هو نفس ما اتبع أثناء الأسرة الثالثة ، وكان قائد الأسطول هو قائد الجيش البرى أيضاً ، وقد عرف « تنتى » أحد عظماء الدولة القديمة بإمرته للبر والبحر ، وكان فى الوقت نفسه يحمل لقب مدير البعثات الملكية ، وكان لفريق الجيش ، ولكل وحدات الجنود إدارتها المؤلفة من كتبة ، وقد حفظت لنا النقوش اسم أحد هؤلاء المديرين وهو « عاخى » الذى كان يحمل لقب مدير كتبة الفرق ، وكان مكلفاً بتجنيد العساكر وإدارة شئونهم فى مديريته .

* *

● **الأسرة الخامسة :**

مدّ أوسركاف ملكه إلى ما وراء الجنادل الأولى ، ولم يطرأ شىء جديد على جيش هذه الأسرة ، فقد كان مؤلفاً من مجندين كان يطلق على الواحد منهم فى هذا العهد « الشاب الجميل » ، وتتألف منهم وحدات كل منها تحت إمرة ضابط يحمل لقب رئيس الوحدة ، ومن هذه الوحدات مجتمعة كانت تتألف كتائب الجيش « عبر مشع » ، وعلى رأسها قائد يحمل لقب قائد كتائب الجيش .

وكان الجيش فى أوقات السلم يقوم بحفظ الأمن والنظام فى داخل البلاد ، وكانت ترسل منه أقسام للعمل فى محاجر سيناء والحمامات ومحاجر طره .

وقد عنى بتدريب الجنود عناية فائقة ، فكانوا يتلقون دروساً حربية ويتدربون على التمارين العسكرية تحت إشراف إدارة خصصت لهذا ، ونذكر هنا على سبيل المثال : « كام ثننت » الذى كان يحمل لقب قائد جيوش البر والبحر ومدير التعليم للجيش ، وكان يعتقد أكثر رجال التاريخ القديم أن الجيش المصرى كان مؤلفاً من جماعات من الرجال المسلحين يقود كل جماعة منهم سيدهم ، بل إنه

كان فى الواقع جيشاً حكومياً مؤلفاً من وحدات حربية تحت إشراف ضباط فنيين لا يقومون بأى عمل مدنى ، وكان مظهر الجيش فى السلاح واللباس واحداً فى كل وحدة ، ونجد ما يؤيد قولنا فى الرسوم التى عثر عليها فى معبد الفرعون «سحورع » ، إذ نرى مناظر الجنود يخطون خطوات حربية ، وكلهم مسلحون بعدة واحدة قابضون على سلاحهم بنظام واحد ، وقد أرسل « سحورع » من ملوك هذه الأسرة أول حملة إلى بلاد بنت « إريتريا » ، وثانية إلى سيناء ، وثالثة إلى الشام .

* *

● **الأسرة السادسة :**

وفى عهد الأسرة السادسة كان الجيش المصرى يشتمل عدا وحدات المجند على جنود مرتزقة ، وكان يقود الكل قائد الجيوش العام ، ومع ذلك فإن الجيش الوطنى كان يؤلف وحدة تحت إمرة قائد لقبه مدير رؤساء المجندين ، وهو لقب كان يطلق على قيادة الجيش النظامى المؤلف من كتائب جنود مصريين ، وكان قواد الجيوش ينتخبون من بين كبار الموظفين أو أمراء الأسرة المالكة ، وكان معظمهم يحملون الألقاب الملكية العظيمة مثل « الذى فى قلب الملك » ، ومن قواد الأسرة القائد « سشمو » .

وكان من اختصاص بيت الأسلحة علاوة على بناء المعاقل وصنع السفن إدارة شئون الغلال التى كانت معدة لتموين مصلحة الأعمال الحربية وخزن ما يلزم من المؤن فى القلاع ، وتجهيز الجيش بالسلاح والملابس والطعام والمعدات اللازمة للقتال ، فلم يقم الجيش المصرى على السخرة أو على السلب ، بل كان يعتمد فى وقت الغزو فى عدته وعتاده وطعامه على الإدارة الحربية .

وقد قص القائد « **أونى** » أثناء الحملات التى كان يقودها فى نهاية الأسرة السادسة : أن تموين الجيش كان على أحسن ما يرام حتى إنه لم يوجد جندى قد أخذ حذاءاً أو نعلاً ، مما كانت فى طريقه اغتصاباً ، ولم يكن من بينهم من أخذ عمداً ملابس من أى بلدة كانت ، ولا من اغتصب معزاً من أى شخص كان .

وفى خلال حملة حربية أرسلت إلى خليج العرب فى عهد الملك « أمحوتب »

أحد ملوك الأسرة السادسة وضعت إدارة الجيش تحت تصرف الجنود والعمال نحو خمسين ثوراً و (٢٠٠ من الماعز) لمؤنتهم .

وفى عهد الأسرة السادسة حاول فراعنتها أن يستبقوا فى أيديهم السلطة المباشرة لجعل القيادة فى أيدى أشخاص من الأسرة المالكة ، يدل على ذلك أن قائدين للجيش فى أوائل الأسرة السادسة كانا من أقرباء الملك .

ولم يطرأ تغيير فى نظام الجيش فى عهد الملك « **تيتى** » ، ولكن يظن أنه حدث انقلاب فى عهد « ببى » الأول فى نظام الجيش بسبب انحلال الدولة وتقسيمها إلى مقاطعات مستقلة ، فأصبحت الوظائف الحربية وراثية تقريباً ، وبذلك نجد أن « أبدو » الذى قاد حملة إلى سيناء فى العام التاسع عشر من حكم « ببى الأول » كان يحمل لقب قائد الجيش الذى كان يلقب به والده « مره رع عنخ » من قبله ، والملك « ببى الأول » ملك من طراز أحمس الأول وتحوتمس الثالث ورمسيس الثانى ، وهو من أعظم ملوك الأسرة السادسة التى حكمت مصر نحو مائة سنة بين عامى (٢٦٢٥ ق . م و٢٤٧٥ ق . م) ، وقد حكم وحده نحو نصف قرن .

وقد يكون من أهم مخلفات عصر هذا الملك النقوش التى تركها لنا القائد «أونى» الذى عاصر أكثر من ثلاثة ملوك ، وقص علينا فيها كل ما كان يقوم به من جليل الأعمال وما ناله فى عهد كل فرعون من الرقى .

قال هذا القائد :

لقد قام جلالته بحملة تأديبية ضد الأسيويين رؤساء الرمال ، وقد جهز جلالته جيشاً مؤلفاً من عشرات الآلاف من الرجال من كل الوجه القبلى من أول الفنتين فى الجنوب حتى أطفيح شمالاً ، وقد جندتهم إدارة جيش المرتزقة بأجمعهم فى القلعة ، وقد وضع جلالته الجيش تحت إمرتى ، على حين أن فيه الأمراء ، وحاملى خاتم الملك فى الوجه البحرى ، وأصحاب القلاع العظيمة ومديرى القوافل ، ومدير الكهنة ، ومديرى الجيوش المرتزقة ، وكان كل منهم على رأس فيلق من قلاع الوجه القبلى والبحرى والضياع التى يحكمونها ، وقد كنت أنا الذى أسهر على نظامهم مع كونى كنت مدير أوقاف القصر ، وبسبب مكانتى لم

يأخذ أحد شيئاً من جاره ، ولم يسرق واحد منهم عجينة أو نعلاً من السابلة ، ولم يأخذ واحد منهم ملابس من أية بلدة ، ولم تغتصب ماعز أى رجل ، وقد قدت هؤلاء الجنود بطريق جزيرة الشمال وبوابة « أمحوتب » ، واستعرضت كل فيلق من هؤلاء الجنود أمامى .

ثم يقول : . . . . لقد عاد هذا الجيش سالماً بعد أن خرب بلاد العدو ، لقد عاد هذا الجيش سالماً بعد أن نهب بلاد سكان الرمال ، لقد عاد هذا الجيش سالماً بعد أن أزال قلاعهم ، لقد عاد هذا الجيش سالماً بعد أن قطع أشجار تينهم وكرومهم ، لقد عاد هذا الجيش سالماً بعد أن حمل الحديد والنار بين كل سكانهم لقد عاد هذا الجيش سالماً بعد أن ذبح كل جنودهم ، لقد عاد هذا الجيش سالماً بعد أن جاء معه بجنود عدة أسرى .

ولقد أثنى علىّ جلالته أكثر من أى شخص .

وقاد القائد « **أونى** » أول حملة إلى فلسطين ، وكانت الأولى من نوعها لاشتراك سفن البحر مع الجيش البرى ، ولما تولى الملك « **مرن رع** » الحكم عين « أونى » حاكماً ومسيطراً على الوجه القبلى بلقب « حاكم الجنوب » ، وكان أهم عمل له هناك حفر خمس قنوات عند الشلال الأول لتسهيل سير السفن التى كانت تعترضها الصخور ، فمهد الاتصال ببلاد السودان والأقطار الأفريقية .

وسنقتبس من قصته ما يهمنا من الناحية الحربية .

قام « أونى » بثلاث حملات : قصد فى **الأولى والثانية** منها إلى بلاد « إيام » التى قامت ضد بلاد لوبيا « تمح » ، وفى **الثالثة** قصد لوبيا وأخضعها .

ثم تعاقبت على الحكم أسرات ضعيفة إلى أن أتيح للأسرة الثانية عشرة أن تكون لها مجداً كبيراً فى عهد **أمنمحعت** الأول والثانى والثالث ، ولكن إلى حين إذ ما لبث أن أفل نجمها ، وقامت على أنقاضها الأسرة الثالثة عشرة ضعيفة مضمحلة فانفصل عنها الجزء الشمالى ، حيث تكوّنت الأسرة الرابعة عشرة ، ثم تغلب ملوك الرعاة « الهكسوس » وملكوا البلاد حوالى مائة وخمسين سنة ، وأسسوا الأسرة الخامسة عشراً ، وفى خلال هذا العهد المظلم تعلم الشعب المصرى الذى لم تتغير نفسيته بالرغم من المحن التى ابتلى بها أثناء احتلال

الهكسوس ، تعلم دروساً جنى ثمارها فيما بعد لما اشتد القتال بقيادة أمير طيبة «سفنن رع الأول والثانى » ، حتى إذا جاء عهد الملك « سفنن رع الثالث » كانت الحرب قد اشتد أوارها .

اندلعت ألسنة الحرب واستمرت سجالاً بين الفريقين ، وقاد **«سفنن رع الثالث»** الجيش المصرى والتقى بالعدو وتطاحنا بالقرب من الأشمونين ، وإذا بسفنن رع الثالث يقع شهيد وطنيته قتيلاً فى ميدان الحرب ، فخلفه ابنه البطل **«كاموزى»** الذى قاد رجاله ونجح فى طرد الهكسوس إلى مدينة منت ، مات كاموزى فتولى القيادة ملك جديد هو « **أحمس الأول** » أصغر أبناء « سفنن رع » الثالث وأشجعهم ، فضرب الهكسوس الضربة القاضية وخلص مصر من الأعداء ورد إليها سيادتها .

عرف أحمس كيف يستخدم تلك الروح الوطنية التى كان قد بثها فى صدور جنوده عقب تخليص وطنهم من المغيرين ، فأنشأ أول جيش للبلاد تمتاز جنوده بخدماتهم الطويلة ، وذلك لكى يحقق مطامعه فى الفتوحات السورية ، وكان الجيش ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : من الجيش للخدمة فى الميدان السورى .

والقسم الثانى : من الجيش للخدمة فى مصر وإمداد القسم الأول عند الحاجة وكاحتياط له .

* *

ثم توطدت أركان الدولة المصرية ونظمت طبقات الشعب ، وعمّ الأمن البلاد وامتلأ الوادى الجميل بالآثار الفخمة والمعابد العظيمة والتماثيل الرائعة ، ونظمت وسائل الرى وتقدمت الزراعة ومهدت الطرق وقويت الجسور ، وشيّد خزان لمياه النيل المتدفقة فى بحيرة موريس ، وكانت فى الامبراطورية المصرية ثلاث سلطات : الملك ، ورجال الجيش ، ورجال الدين ، فكان الملك يستمد سلطانه من الآلهة مباشرة ، وكان إلى جنبه مجلس مؤلف من رجال الدين يستشيرهم فى المشكلات وكان رجال الجيش ينتخبون الملك ، فإذا تولى شئون البلاد جمع حوله رجال الدين وأمراء البلاد .

لم يغير الهكسوس حياة البداوة التى عاشوا عليها ، فلم تتغير طباعهم أو تعدّل عاداتهم ، بل ظلوا على طبيعتهم يميلون إلى حياة البادية ، ولم يشيدوا الدور أو الهياكل ، وعاشوا بعيدين عن المصريين لا يعرفونهم ، وكانت جل أعمالهم جمع الضرائب بقسوة وبدون عدل ، فكرههم المصريون وأضمروا لهم العدوان ، وكان كل مصرى ثائراً عليهم .

كان الاتحاد والوطنية قاضيين على حكم الرعاة بعد أن انغمسوا فى الرفاهية والترف فانحطت نفوسهم وفقدوا غرائزهم الأصلية إلى أن طردهم أحمس من البلاد شر طردة ، وكان من وراء روح التجديد الوطنى الذى بدأته فى الحقيقة «**تيتى شرى**» جدة أحمس فى مصر ، والحروب التى قامت بها وخلفاؤها لمناوءة الهكسوس أن تخلص المصريون من هذا العنصر المحتل وطاردوه إلى سيناء على أيدى أحمس كما رأينا ، ثم قام خلفاؤه من بعده بملاحقة هذا العدو فى سوريا .

كانت المدة التى أعقبت عصر النهضة المصرية أروع حقبة فى التاريخ المصرى ، فقد أثار طرد الرعاة روحاً جديدة وحماسة قوية لا يسعهما وادى النيل على ضيق جنباته ، فلم تصبح مصر أمة مستقلة فحسب ، بل صارت أمة فاتحة تريد أن تتبوأ مكانتها التى تليق بنفسيتها الجديدة ، فاجتاحت جيوشها هضاب آسيا إلى شواطئ الفرات ، واكتسح أسطولها الناشئ جميع الممتلكات التى فى طريقها إلى المحيط الهندى ، وعلى الآثار نستطيع أن نشاهد ونقرأ أنباء تلك الفتوح المصرية .

فما الذى نراه على تلك الآثار ؟

نرى الجحافل المصرية بقواتها من حملة الرماح والدروع والقسى متجهة نحو أهدافها الحربية ، فتذوب أمامها الأعداء كما يذوب الثلج أمام النار ، ونرى العربات الحربية الثقيلة ، وقد امتطاها جنود مصر فيشقون صفوف الأعداء ، ويقضون عليهم بسهامهم المميتة ويحاصرون المدن المنيعة ويسلطون عليها أدوات القتال والقذائف وسلالم الحصار وأبراج الموت المتحركة ، فإذا تم لهم النصر عاد الفرعون يحمل جنوده الفائزون أعلام النصر ، بينما يعدو الأسرى أمام عربته الحربية أو ممسكين بها ، ويتلو هذا الحفل صفوف الأسرى الطويلة يحملون نتاج أوطانهم من نباتات وخضر وفاكهة ، وتسير معهم فصائل الحيوان المختلفة مما ليس

له مثيل فى مصر ، ومن تنوع فصائلها يستدل على البلاد التى وطأتها أقدام أبناء وادى النيل .

فإذا وصلت مواكب الفرعون ظافرة إلى مصر شيّد الملك معبداً عظيماً من الجرانيت أو الحجارة الكبيرة ، وزين مدخله بالمسلات الجرانيتية الخضراء أمامه طريق صفت على جانبيه تماثيل أبى الهول ، ثم قام الفنانون بمساعدة رجال التاريخ والعسكريين بتدوين أنبائهم العسكرية وحوادث الحملة الحربية ليخلدوا ذكراهم على مر الزمان ، فكانت مخلفات انتصارات الفراعنة هى الحجر الأساسى الذى ازدهرت بها العمارة المصرية القديمة .

* *

● تحوتمس الثالث :

فإذا وصلنا إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة وجدنا الروح العسكرية قد قويت فى صدور أبناء الشعب المصرى ، وبهذه الروح والقوة سار الملك الشاب « **تحوتمس الثالث** » على رأس جيشه العظيم إلى معركة مجدو الأولى ، حيث وضعت قواعد فن الحرب والتى سار على ضوئها قادة الجيوش لما فتحوا فلسطين وسوريا فى مستهل القرن العشرين .

إن بطل الأسرة الثامنة عشر هو « تحوتمس الثالث » الذى حارب أمراء سوريا عشرين سنة متتالية فى سبيل تثبيته سلطان مصر فى هذه الأصقاع .

اعتلى تحوتمس العرش سنة (١٥٠١ ق . م) ، وأخذ يعد للحرب عدتها حتى كانت سنة (١٤٧٩ ق . م) ، فقام من مصر ماراً بغزة حتى وصل إلى « يحيم » و« عرونة » على نحو عشرة أميال إلى الشمال من طولكرم ، وكان أمام تحوتمس ثلاث طرق للوصول إلى مجدو ، حيث كان يعسكر أمير قادش ومن معه من أمراء سوريا الوسطى وأمراء الكنعانيين فى فلسطين ، وكان هذا الأمير قد أقام فى مجدو ليدفع أى خطر - والطريق الأول ليتجه إلى الشرق وتمر بالقرب من طولكرم ونابلس وبجنين ، والطريق الثانى يؤدى إلى الغرب ويمر بوادى الروحة إلى مكان على نحو سبعة أميال شمالى مجدو [١] ، أما الثالث فهو طريق وعر ضيق صعب التسلق ينتهى أمام مجدو .

---

(١) تقع مدينة مجدو على بعد خمسة عشر ميلاً جنوب مدينة الناصرية بفلسطين .

أراد الأمراء اتباع إحدى الطريقين الأوليين بيد أن تحوتمس أصر على عبور الطريق الثالثة ، وسار فى طليعة جيشه حتى أشرف على مجدو بعد أن استغرقت رحلته نصف شهر مايو ، وأمام أسوار مدينة مجدو المنيعة التى احتمى بداخلها ملوك وأمراء سوريا خاطب تحوتمس جنوده قائلاً :

« إنكم إن انتصرتم اليوم على أعدائكم قضيتم على ألف مدينة وألف ملك » مشيراً إلى الحلف الذى تم قبيل تلك المعركة بين ملوك البلاد وزعمائها تحت زعامة ملك قادش لصد زحف المصريين ، ولكن أنى لتلك القوات المفككة أن تقف فى وجه الفاتح العظيم وجيشه المنظم المتحد تحت قيادة واحدة .

استعد الجيش المصرى فى ذلك اليوم للكفاح ، وفى صبيحة اليوم التالى التقى الجيشان المصرى والسورى ، فتغلب الأول على الثانى ، ولفّ فى خط طويل إلى شمال مجدو ، ثم تغلب القلب بقيادة « تحوتمس » نفسه ودحر السوريين واشتغل المصريون بالغنائم ، فتمكن أمير قادش ومن معه من السيطرة على الموقف داخل مجدو ، فحاصر الملك المدينة إلى أن سلمت إليه ، وقد كان احتلال مجدو كاحتلال ألف مدينة ، إذ تجمع بها أمراء الحلف السورى ، وقد غنم المصريون (٢٩٤) مركبة حربية بعضها مذهب و(٢٠٠) درعاً ، ودونت هذه الأسلاب فى هيكل آمون بطيبة ، وعامل المصريون الأسرى بالحسنى كعادتهم ، وأتم تحوتمس بعدها سيره إلى فينيقيا واحتل صور .

وهكذا ظفرت مصر وأسست امبراطوريتها الأولى فى الشرق الأدنى «الرمامسة» .

فإذا انتقلنا من فتوحات تحوتمس الثالث والذين خلفوه من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة أمثال « **تحوتمس الرابع** » و« **أمنحتب الثانى والثالث** » وجدنا الامبراطورية المصرية الأولى فى أزهى عصورها حتى يحكم البلاد **أخناتون (أمنحوتب الرابع)** فيشتغل بالأمور الدينية ، ويبدأ انحلال السيادة المصرية فى آسيا إلى أن تنتهى فى عصر « **توت عنخ أمون** » - وسرعان ما يقوم البطل الجندى « **حورمحب** » فيؤسس الأسرة التاسعة عشرة على أنقاض سابقتها ويصلح ما أفسده أسلافه ، ويعيد تنظيم الامبراطورية الثانية ، وكانت أهم حملاته فى بلاد النوبة .

وبموته يعتلى العرش « **رمسيس الأول** » ، ثم « سيتى الأول » الذى استرجع فلسطين وأخضع البدو والفينيقيين ، ثم واصل سيره حتى التحم بالحيثيين وعقد

معهم محالفة ، وفى ذلك الحين تستعيد مصر مجدها على أيدى البطل رمسيس الثانى (١٢٨٨ ق . م - ١٢٧١ ق . م) بطل معركة قادش الخالدة التى ما زالت مخلدة على جدران معابدنا المصرية شعراً ونثراً .

والحديث عن معركة قادش حديث طويل ، ومن حسن الحظ أن معظم أنباء هذه المعركة ما زالت محفوظة فى معبد مدينة هابو بالرمسيوم ، وقد بحثها بعناية المؤرخ الأمريكى « **برستد** » ، وطلع علينا بدراسة كاملة لا تقل فى ناحية من نواحيها عن إحدى معارك القتال فى العصر الحديث .

دارت هذه المعركة بين جيوش فرعون التى كانت تتألف من أربع فرق رئيسية وبين ملوك سوريا ، وعلى رأسهم ملك الحيثيين ، واستمرت أعواماً طويلة ، وهذه الحرب وإن لم تحقق كل آمال رمسيس الثانى ، فقد خرجت منها مصر مرفوعة الرأس محتفظة بكرامتها بمعاهدة عقدتها مع الحيثيين ، وكانت أول معاهدة صداقة بين مصر ودولة أسيوية .

وإلى اليوم نجد على الوجه الخارجى لأحد جدران معبد الكرنك نص معاهدة السلام المذكورة .

وبانتهاء حكم الأسرة التاسعة عشر نصل إلى **رمسيس الثالث** من ملوك الأسرة العشرين الذى هزم الليبيين وسكان البحر ، ونظم ممالكه الأسيوية وحصن حدودها .

ثم بسط رجال الدين نفوذهم ، فحكموا البلاد فترة من الزمن ، وفى ذلك الحين اشتد ساعد بعض رجال البلاط من الليبيين ، واستطاعوا أن يقبضوا على زمام الحكم ، وانتقلت إليهم سيادة البلاد نحو قرنين ، والواقع أنهم لم يؤثروا أدنى تأثير فى قومية المصريين واعتزازهم بمصريتهم ، بل حدث أنهم تطبعوا بطباع المصريين وحافظوا على العادات والألقاب الأهلية ، وعبدوا آلهة المصريين ، وكان أهم ملوكهم شيشنق .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى تسنى لبعض رجال النوبة الأقوياء من اغتصاب السلطان من أيدى الليبيين وحكموا باسم الأسرة الرابعة والعشرين ، ومن هؤلاء بعنخى الذى بدأ الأشوريون فى عهده يهددون مصر ، وتمكنوا فى

عهد خلفه طهراقة من فتح مصر - وقد حاول ابنه « تانوت امون » أن يبسط سلطانه مرة أخرى ، ولكن خاب أمله .

أخضع الأشوريون مصر ولم يخضعوا المصريين ، ولكن « **بسماتيك الأول** » وهو ابن أحد أمراء الأشوريين كان قد فنى فى القومية المصرية ، إلى حد أنه انتقض على الأشوريين وأحيا الآداب المصرية القديمة وأعلن استقلال البلاد .

استطاع « **بسماتيك** » بجيشه الناشىء أن يقضى على نفوذ منافسيه من الأمراء فى معركة دارت بينه وبينهم ، وبدأ ينفذ سياسة التوسع ، فانتهز الفرصة الملائمة لغزو سوريا بعد أن جهز جيشاً من المصريين والأغريق سار فى طليعته وعبر به الصحراء ، وما لبث أن استولى على غزة وعسقلان ، ثم دخل مدينة « أشدود » ظافراً ودانت له البلاد ، ثم عاد إلى مصر ، وشرع خلفه « نخاو » فى استعادة الممتلكات المصرية بآسيا منتهزاً ضعف آشور ونينوى ، فغزا فلسطين وأخضع بلاد يهوذا ، واتجه نحو أعالى الفرات ، ثم رجع إلى مصر بعد أن أعاد سوريا إلى الدولة المصرية ، وكان قد اعتمد على أسطول قوى .

وهكذا ظهرت مناعة المصريين ضد كل حكم أجنبى حتى أن قمبيز عندما تغلب على مصر فنى مع أهله فى القومية المصرية ، فتلقب الفرس بألقاب المصريين وعبدوا الآلهة المصرية ، ولكن رغم ذلك كله لم يكسبوا صداقة المصريين ، فقاموا بعدة ثورات محاولين إخراج الفرس من مصر إلى أن وفقوا فى طردهم أثناء حكم « دارا الثانى » بيد أنهم عادوا إليها ثانية وبقوا فى البلاد إلى أن استولى الاسكندر المقدونى على مصر عام (٣٢٣ ق . م) ، وكانت بعد موته من نصيب بطليموس الأول أحد قواده ، فأسس أسرة البطالسة .

* *

● المصريون القدماء :

كانوا أول أمة زراعية عظيمة فى العالم . . . فلاحهم أول من اخترع الفأس والمحراث والناضحة (الشادوف) .

حكومتهم أقدم حكومة عنيت بالرى ونظامه ، وكانوا أول من حفروا القنوات وأقاموا الخزانات والسدود .

كانوا أول من مهروا فى الصناعات الدقيقة ، وعجائب مصنوعاتهم تدهش أهل العصر الحاضر بجمالها ودقتها .

كانوا أول من اخترعوا الكتابة ، وأول من صنعوا الورق فى العالم .

كانوا أول من عرفوا العملة الذهبية والنحاسية ، كما أنهم استعملوا الأوزان والمكاييل .

عمائرهم وفنونهم قد خلدها الزمن وهى عنوان أقدم حضارة عرفها العالم .

وضعوا أول قواعد الحساب والهندسة والفلك ، ومنها اقتبس علماء الأمم الأخرى ، ففى الحساب عرف المصريون الرموز العددية حتى المليون ، وعرفوا مساحة المربع والمستطيل والمثلث ، ووصلوا إلى مساحة الدائرة .

ونبغ المصريون فى الفلك ، وكانوا أول أمة ابتكرت التقويم السنوى ، وقدروا أيام السنة بـ (٣٦٥ يوماً) ، والتقويم المصرى القديم الذى اخترع فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد هو التقويم الحالى الذى ورثه العالم بعد ستة آلاف سنة مع تعديل بسيط .

وقسّم المصريون السنة إلى ثلاثة فصول : كل منها أربعة أشهر ، أولها الفيضان وثانيها البذر (الشتاء) ، وثالثها الحصاد (الصيف) .

والمصريون أول من قاسوا الزمن ، فاخترعوا المزاول لمعرفة الوقت نهاراً ، والساعات المائية لمعرفته ليلاً .

والمصريون أوائل أطباء العالم ، كان لديهم الأطباء الأخصائيون ، كل يعالج عضواً من أعضاء الجسم ، وعرفوا فوائد النباتات والأعشاب لمعالجة الأمراض ، وأطباؤهم أول من زاولوا الجراحة ، وقد برعوا فى فن التحنيط إلى حد لم يسبقهم فيه أحد حتى اليوم .

والمصريون أول من جيّشوا الجيوش المنظمة ، وأول من شيّدوا الحصون ، وكذلك كانوا أول من استعملوا الأساطيل البحرية .

هؤلاء هم المصريون ... الذين كانوا أول من أقاموا حكم الامبراطوريات وسنوا القوانين وشرعوا الشرائع .

هؤلاء هم المصريون ...

* *

● البطالسة (٣٢٣ ق . م - ٣١ ق . م) :

كانت مصر فى عصرهم أعظم دول الأرض قاطبة ، قوة وثروة ، وتمتعت الاسكندرية التى وضع أساسها اسكندر الأكبر بنصيب وافر من الرخاء والغنى ، وأصبحت مركزاً للعلوم والفنون والآداب .

وفى عام (٣١٨ ق . م) امتلك بطليموس سوريا ، وأنزل قواته البحرية فى قبرص واستولى عليها ، وحوالى عام (٢٨٨ ق . م) كان للأسطول المصرى السيادة فى بحر « إيجه » .

وقد عمل خلفاؤه كل ما فى وسعهم لرفع شأن مصر على البلدان المجاورة ، ونجحت سياستهم أيما نجاح حوالى ثلاثة قرون .

ولقد أثرت البيئة المصرية فى أسرة البطالسة ورجالهم ، ففنوا كمن سبقهم من الغزاة فى قومية أهل البلاد ، وكثر التزاوج بينهم وبين المصريين ، وأخذوا يبالغون فى التقرب إلى المصريين ، ومع ذلك فإن أهل البلاد لم ينفكوا يحقدون على المغتصبين ، فثاروا عليهم مراراً إلى أن تداعت الامبراطورية التى أسسها اسكندر الأكبر ، وفى كل هذه المراحل التاريخية لم يتمكن مستعمر من أن يغلب الروح المصرية .

ثم بدأ نفوذ رومة يتسرب إلى مصر وانتهى الأمر بهزيمة « كليوباترة » ، و«مارك أنطونى » فى معركة أكتيوم البحرية ، على يد القائد الرومانى « أوكتافيوس » عام (٣١ ق . م - ٣٠ ق . م) ، وأصبحت مصر جزءاً من الامبراطورية الرومانية ومركزاً من أغنى المناطق الاقتصادية ، ومن أخصب المراكز الثقافية فى تلك الامبراطورية التى أخضعت فى دورها بريطانيا التى تأثرت بالمدنية الرومانية لما كانت تمتاز بها على المدنية الإنجليزية .

ظلت مصر ولاية رومانية ستمائة وسبعين عاماً ، كانت فى خلالها ملجأ المسيحية ، وانتهت أيامهم بغزو العرب لمصر عام (٦٤٠م) فعاد المصريون يثبتون مناعتهم التقليدية ويفنون الغزاة الجدد فى قوميتهم ، ونشبت الثورات المحلية ضد الحكام الجدد ، فكان الخلفاء يحترمون إرادتهم إلى أن اعتنق المصريون الدين الإسلامى ودخلوا فى صفوفه أفواجاً ، وأصبحت مصر قلب العالم الإسلامى .

* * *

مصـر الإسـلامية

أدمجت مصر بعد الفتح الإسلامى فى الامبراطورية الإسلامية العربية ، وظلت جزءاً منها إلى أن ضعفت الخلافة العباسية وترك الخلفاء حكم البلاد ومعالجة سياستها للوزراء والقواد الأجانب ، فاستأثروا بالسلطة وعمت الفوضى أجزاء الدولة ، ولمع فى الأفق أسماء لقواد استقلوا بحكم بعض الولايات ، وبدأت الحركات الانفصالية فى بعضها ، ومن هؤلاء **أحمد بن طولون** .

قدمَ أحمد بن طولون الفسطاط عاصمة الدولة المصرية وعمره لا يتجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعاً لتسلم زمام القوة العسكرية ، وسرعان ما ظهر نبوغه فى الشئون الإدارية والحربية ، وتجلى نشاطه وعم عدله ، أتى إلى مصر مديناً لأحد أصدقائه، ومات تاركاً عشرة ملايين من الدنانير فى الخزينة وعبيداً وخيلاً وجيشاً وأسطولاً .

وكان أحمد بن طولون طموحاً إلى المجد ، فعمل على استخلاص ملك مصر لنفسه من أول يوم وطأت فيه قدماه أرض مصر ، وللمرة الأولى فى تاريخ مصر منذ الفتح العربى أصبحت مصر فى أيامه دولة قوية مستقلة ، فتغلب على مثيرى الفتن فى البلاد ، وأخضع ثلاث ثورات شبت فى أنحاء مصر ، ثم سار إلى الشام واحتل كل أجزائها ، ووصل بجيوشه إلى طرطوس والفرات ، وحارب جنود الخليفة والروم ، ووحد تحت سلطته امبراطورية مترامية الأطراف تمتد من برقة إلى حدود الامبراطورية الرومانية فى آسيا الصغرى ، ومن نهر الفرات إلى شلالات النيل الأولى ، واهتم ابن طولون بتحصين الفسطاط ، فأمر ببناء حصن على الجزيرة التى بين الفسطاط والجزيرة (جزيرة الروضة) ليكون معقلاً لأهل أسرته وذخائره ، ووزع أعمال البناء بين قواده ، وكان يتعهدهم بنفسه كل يوم حتى انتهى العمل منه ، كما أنه شيّد داراً لصناعة الأسلحة والسفن .

ولم يدم الحال طويلاً لأسرة الطولونيين ، فقد عادت مصر ثانية إلى سلطان الخليفة العباسى ، وأصبحت إحدى ولاياته التى يشرف عليها أحد أمرائه ، ومع

ذلك فلم تنج مصر من هجمات الفاطميين بعد تأسيس دولتهم الجديدة فى المغرب، فأرسلوا جيشاً اخترق البلاد المصرية وعسكرت جنودهم أمام شاطئ النيل فى الجيزة ، حيث حفر جيش الخليفة خنادقه بقيادة « ذكا الرومى » ، ولكن انتصر المصريون عليهم وطردوا الفواطم عام (٩٢٠ م) .

وتولى الحكم **أبو بكر محمد بن طغج** الملقب بالأخشيدى ، ولئن كان لم يترك أثراً عظيماً فى مصر إلا أنه أعاد الأمن إلى نصابه فى مصر ، وصد المغيرين من أهل شمال أفريقية ، وقد بلغت جيوشه فى مصر والشام (٤٠٠٠٠٠) تشتمل على عدة طوائف وأجناس مختلفة ، وفى أيام الأخشيديين غزا الفواطم مصر .

● **مصر الفاطمية** :

لما نجح الخليفة الفاطمى **المعز لدين الله** فى تأسيس دولته بالمغرب عزم على فتح مصر ، فوضع خطته العسكرية وأعد حملته العظيمة وسير عليها قائده جوهر على رأس مائة ألف من جنوده مستهلاً السير من مدينة قيروان فى (١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨ هـ/ ٥ فبراير عام ٩٦٩م) فسار جوهر حتى وصل بجيوشه إلى طروجة[١] بالقرب من الإسكندرية وأرسل إلى أهل مصر فأجابوه بطلب الأمان ، فأجابهم جوهر إلى ذلك وكتب لهم العهد ، فلما علم الأخشيديون بذلك توجهوا لقتاله عند الجيزة ، فوصل جوهر إليها ، ووقع القتال بين الفريقين حتى سقطت فى (١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ - ٦ يوليو ٩٦٩م) ، ثم سار جوهر إلى منية الصيادين (ميت النصارى) عبر مخاضة منية شلقان (شلقان) الواقعة شرق القناطر الخيرية، وكان قد وصل إليه المدد بقيادة الأمير جعفر بن فلاح ، والتقوا مع المصريين ، فدارت عليهم الدائرة وطلبوا الهدنة ، فسكن الناس وفتحت الأسواق ودخل جوهر فى اليوم التالى إلى مصر فى طبوله وجنوده ، ونزل بالمناخ : وهو موضع القاهرة اليوم ، واختط المدينة وحفر أساس القصر فى نفس الليلة ، وكتب إلى مولاه المعز يبشره بالفتح ويهنئه ، وفى ذلك قال ابن هانئ :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

ومذ جاوز الاسكندرية جوهر ... تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

---

(١) قرية كانت موجودة بمركز « أبو المطامير » بمديرية البحيرة .

واستمر جوهر حاكماً على مصر إلى أن قدم إليها مولاه المعز لدين الله فصرف جوهر عن البلاد ، وصار من عظماء القواد فى الدولة إلى أن مات .

*** الجيش فى عهد الفاطميين :**

وكان الجيش فى ذلك العهد ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ - **الأمراء** : وينقسمون إلى أمراء السلسلة الذهبية : وهم أصحاب أرقى الرتب ، وحملة السيوف : وهم حرس الخليفة الراكبين والضباط .

٢ - **ضباط الحرس** : ويتألفون من الأسياد أو الأغوات ، وهم الذين كانوا يمنحون مناصب الدولة الهامة ، والحرس الصغير : وكان يتكون من (٥٠٠) شاب تقريباً ، ثم جنود الخليفة وعددهم نحو (١٥٠٠٠) .

٣ - **اللواء** : ويحمل كل منها اسماً لأحد الخلفاء أو الوزراء ، أو يطلق عليها اسم القبيلة التى تنتمى إليها كالمحافظية والجيوشية والروم والصقالبة والسودانية ، وكان عدد هذه اللواءات كثيراً جداً يختلف من وقت لآخر ، وكان مرتب الجندى يتراوح بين دينارين وعشرين ديناراً فى الشهر .

وكانت هيئة الوزراء تنقسم إلى قسمين : رجال السيف ، ورجال القلم ، فرجال السيف : هم قواد الجيش ورجال ديوان الجنود ، وكان هؤلاء يشغلون أهم مناصب الدولة .

وتألف ديوان الجيش من الأقسام الآتية :

الأول : ديوان الجيش ، ولا يكون كبيره إلا مسلماً ، وهو الذى يعرض الجند وخيولهم ، ولم تكن فى سلطته تغيير أحدهم ولا شىء من مخصصاتهم إلا بأمر من السلطان ، وكان يشرف على نقباء الأمراء الذين يعرفونه أحوال الجنود .

الثانى : ديوان الرتب ، وكان يشتمل على اسم كل مرتزق فى الدولة .

الثالث : ديوان الإقطاع ، وكان مختصاً بما هو مقطع للجنود (نصيبهم من الأرض) .

وكان بمصر فى عهد الفواطم داراً يقال لها « خزانة البنود » تودع فيها الأعلام والدرق ، وكان ينفق عليها حوالى (٨٠٠٠٠ دينار) سنوياً ، وقد بقى فيها كل ما

صنع من الأعلام والأسلحة والسروج واللجم ، وفيها المذّهب والمفضض ، وقد احترقت الدار بما فيها ، ولم ينج منها شيء ، وكان من جملة ما احترق « لواء الحمد » ، وقد بلغت قيمة الخسائر حوالى ثمانية ملايين دينار .

وفى خاتمة أيام الفاطميين كانت القاهرة قد بلغت شأناً كبيراً من الرقى والتقدم تكتنفها الطرقات والأسواق وتتوسطها البساتين الغناء ، وتشتمل على الحمامات والوكالات والمدارس ، وتاريخ هذه العمائر ، ووصفها قد أفاضت فيه صفحات الخطط المقريزية فى فصول بليغة تضئ بعظمة القاهرة من أعوامها الأولى إلى القرون الوسطى ، وقد وصفها أيضاً الرحالة العرب والأوروبيون .

ونذكر من أهم منشآتهم فى القاهرة : الجامع الأزهر ، والجامع الحاكمى ، والأقمر ، وجامع الصالح طلائع ، وقد اندثرت معظم القصور ودور العلم التى كانت تزين القاهرة ، وما زالت مخلفاتهم الخالدة فى المتاحف يشهد بها علماء الآثار والفنون .

وقد امتد سلطان الفواطم من نهر العاصى بالشام إلى حدود مراكش غربا وشمال السودان وطغى نفوذهم الروحى نحو بلاد فارس ، وأخيراً قضى على سيادتهم البطل صلاح الدين الأيوبى .

* * *

الدولة الأيوبية

(٥٦٧ هـ - ٦٤٨ هـ/ ١١٧١م - ١٢٥٠م)

وصل أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى إلى مصر فى أوائل يناير عام (١١٦٨م) لنجدة مصر ضد جيوش أملريك ملك الفرنج فى سوريا ، فحاول «شاور» وزير الخليفة الفاطمى العاضد أن يستميل « شيركوه » بالملق والمداهنة ، فلم يفلح وقبض عليه صلاح الدين ، وأمر الخليفة بقتله لما علم باتصاله بأعداء مصر ، وتخلصت البلاد من داهية لعب دوراً كبيراً فى السياسة المصرية فى القرن الثانى عشر .

واختار الخليفة العاضد بعد شاور القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيره الأول ولقبه بالملك « المنصور » ، غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام ، فاستوزر من بعده البطل « صلاح الدين » ، وجعله أميراً لجيوشه ولقبه بالملك الناصر .

وانتهز صلاح الدين فرصة وفاة العاضد ، فقضى على الدولة الفاطمية فى مصر وأعاد سلطان العباسيين مرة ثانية إلى مصر ، ثم أنشأ أسرة الأيوبيين وجعل على وزارته « بهاء الدين قرقوش » ، وبانقراض الدولة الفاطمية أزال صلاح الدين جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعرب والأرمن ، وجعلهم من الأكراد والأتراك ، فبلغت عدتهم (١٢٠٠٠ فارساً) .

قضى البطل صلاح الدين معظم حياته خارج مصر محارباً الصليبيين لرفع شأو الإسلام والمسلمين فى خلال الأربعة والعشرين عاماً ، وهى فترة حكمه كحاكم مستقل ، لم يقض منها سوى ثمانية أعوام فى القاهرة ، بينما قضى سنى مجده متنقلاً بين الشام وأرض الجزيرة وفلسطين ، ولقد قضى على الصليبيين بانتصاره الخالد عليهم فى معركة « حطين » ، وأعاد بيت المقدس لسلطان المسلمين ، وسمح للمسيحيين أن يحجوا إليه .

ولا يتسع المجال للكلام عن انتصارات صلاح الدين على الصليبيين فى بلاد

الشام ومصر وانتهاء نضاله معهم فى معارك حطين وصور وعكا والرملة ، لكننا نذكر موقفاً اشتركت فيه بعض قوات مصرية برية وبحرية .

ففى عام (٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م) قصد الفرنج بلاد الحجاز بعد أن بنى الأمير أرناط « ريجنال دى شانيون » صاحب قلعة « الكرك » بشرق الأردن سفناً ، وحملها على السير إلى بحر القلزم ، وأركب فيها الرجال وأوقف منها مركبين بالقرب من قلعة القلزم (السويس) لمنع أهلها من الاستقاء ، وسارت البقية نحو ميناء «عيذاب» أحد موانئ مصر ، فقتلوا وأحرقوا وأسروا فى بحر القلزم نحو ست عشرة سفينة وأخذوا بعيذاب مركباً كان يأتى بالحجاج من جدة ، وأسروا قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع ، واحتفظوا بسفينتين محملتين بالبضائع ، كما استولوا على أطعمة كثيرة كانت معدة لأهل الحرمين ، وأحدثوا حوادث لم يسمع فى بلاد الإسلام بمثلها ، وكانوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة ، فأوفد الملك العادل بأمر من السلطان صلاح الدين القائد حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم (السويس) ، حيث أعد أسطولاً صنعت سفنه فى مصر والإسكندرية ، وسار إلى « أيلة » على رأس العقبة ، وظفر بسفن الأفرنج فحرقها وأسر من فيها ، وسار إلى عيذاب وتبع سفن الفرنج فاستولى عليها ، وأطلق من فيها من التجار الأسرى ورد إليهم ما أخذ ، وصعد البر مع قواته حتى أدرك من فر من جنود الأفرنج وأسرهم ، وساق منهم اثنين إلى منى وذبحهما ، ثم عاد إلى القاهرة بالأسرى فضربت أعناقهم كلهم فى جهات متعددة بين القاهرة والفسطاط ، ثم انتقم صلاح الدين من الأمير أرناط وقتله بيده .

وقد امتد سلطان مصر فى زمن الدولة الأيوبية ورفرفت رايتها على جزء عظيم من الممالك الإسلامية ، فدخل تحت حكمها الشام وشمالى العراق وبلاد الكرد، وعند وفاة صلاح الدين (٤ مارس سنة ١١٩٣م) كانت مصر زعيمة دولة إسلامية امتدت من دجلة إلى برقة وإلى النوبة جنوباً ، وفى عهده شيدت قلعة الجبل على المقطم على البقعة التى كان يتدرب فيها الجند أثناء حكم أحمد بن طولون .

وقد عمل خلفاء صلاح الدين بعده على الاحتفاظ بمكانة مصر التى كانت لها وجمعوا كلمة المسلمين ، فوقفوا فى وجه الصليبيين وأضعفوا شوكتهم ، ولم

يفتروا عن توطيد دعائم ملكهم ، فكان الملك العادل من أكبر الناس حرصاً على وحدة المسلمين ، ولما خلفه ابنه الكامل سار على هدى أبيه وجده ، فحفظ وحدة الدولة ، وزاد فى تحصين القاهرة ، فأتم بناء قلعة صلاح الدين (الجبل) ، وفى أيامه غزا الصليبيون دمياط بقيادة الملك « جان دى بريين » عام (١٢١٨م) .

● معركة دمياط :

بدا للصليبيين أن يحولوا رحى الحرب من سوريا إلى مصر قلب الدولة الإسلامية ، فقصدوا دمياط وملكوها بعد معارك شديدة ، وكان العادل فى الشام، فمات أثناء عودته كمداً عليها .

ثم تولى ابنه « الكامل » عام (١٢٠٨م) ، فعمل على طرد الصليبيين من دمياط ، ولما وصلت إليهم أمداد جديدة عرض عليهم الصلح على أن يرد إليهم بيت المقدس نظير جلائهم عن دمياط ، فرفضوا هذا البدل وشرعوا فى الزحف على القاهرة .

وانتهز المصريون فرصة ارتفاع النيل (الفيضان) فأطلقوا الماء على معسكراتهم بالقرب من المنصورة ، ثم انقضوا عليهم من كل جانب وهزموهم شر هزيمة ، ثم أمر الملك الكامل بإطلاق سراح الأسرى بعد أن عاهدوه على أن يخلو دمياط ويجلوا عن مصر .

وفى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب عام (١٢٣٩م) انتزع من الصليبيين بيت المقدس عام (١٢٤٤م) ، وشيّد قلعة الروضة بجزيرتها ، حيث حشد فيها الجند والأسلحة .

* *

● معركة المنصورة :

فى عام (١٢٤٨م) أعد الفرنج حملة بقيادة « **لويس التاسع** » ملك فرنسا للاستيلاء على مصر ، وأرسل خطاباً إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب يطلب منه تسليم البلاد ، فكتب القاضى بهاء الدين زهير الجواب الحاسم بمقاومة المصريين إلى النهاية .

وقدمت سفن الصليبيين أمام دمياط بكثرة هائلة ، فاضطرت حامية المدينة إلى التقهقر وإخلائها من السكان بسرعة ، فاستولى عليها الفرنج بسهولة وأخذوا فى تحصين أسوارها وشحنها بالآلات الحربية والجند ، وفى ذلك الوقت أسرعت القوات المصرية وعلى رأسها السلطان وبقيادة الأمير فخر الدين إلى المنصورة لمقاومة تقدم الأعداء وردهم على أعقابهم ، ولكن بعد أيام قلائل مات السلطان فكتمت زوجته شجرة الدر موته إلى أن أعلنت وفاته رسمياً ، ونصب مكانه الملك المعظم « توران شاه » .

ولما علم الفرنج بموت السلطان خروا من دمياط متقدمين إلى فارسكور فوصلوها ، وعسكرت قواتهم أمام المنصورة وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم ، ولم يتركوا شبراً من الأرض بدون تحصين ، وكانت سفنهم أمام سفن المسلمين بإزاء المنصورة ، فدار القتال براً وبحراً بعنف شديد ، وكان النصر بينهما سجالاً ، واستشهد فى إحدى هذه المعارك الأمير فخر الدين قائد الجيوش المصرية وكادت جنود الفرنج تستولى على المنصورة أيضاً لولا ظهور الفارس الشجاع «بيبرس البندقدارى » على رأس طائفة من مماليكه البحرية حملوا على الفرنج حملة صادقة ، فأزاحوهم واستعملوا فى مكافحتهم السيوف والدبابيس فانهزموا وبلغ عدد من قتل من فرسان الفرنج الخيالة فى هذه المرة ألفاً وخمسمائة فارساً ، . وضيقت المماليك الحصار حول مشاة الأفرنج ، فلم ينج منهم إلا القليل ، وكان الأسطول المصرى قد أضيفت إليه بعض الوحدات المشحونة بالجنود المدربين ، فتسورت سفن الفرنج أمام المنصورة ، وسرعان ما استولى المصريون على اثنين وخمسين مركباً لهم ، وقتلوا وأسروا منهم نحو ألف مقاتل ، واتخذ المصريون خطة الحصار البحرى وضيقوا الخناق على أعدائهم حتى وهنت قوتهم وشرعوا فى طلب الهدنة على أن يسلموا دمياط ويأخذوا بدلاً منها القدس وبعض البلاد الداخلية ، فلما لم يستجب إليهم أحد أجلوا عن مواقعهم وتقهقروا إلى دمياط للتحصن بها ، فركب المصريون أقفيتهم وأجبروهم على التقهقر .

وفى اليوم التالى لطلب الهدنة حدثت معركة فارسكور العنيفة التى قضت على جميع الصليبيين ، وأسر ملك فرنسا وجمع كبير من أمراء الحملة ، فسيقوا إلى المنصورة واعتقل ملك فرنسا وأخوه فى الدار التى كانت للقاضى فخر الدين

إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء ، فلما رأى أمراء الحملة ما لحق بهم وبحملتهم من الفشل طلبوا الصلح بنفس الشروط التى تمت فى معاهدة سابقة مع السلطان الكامل ، وانتهت الحملة بتسليم دمياط للمصريين ورفع العلم السلطانى على سور المدينة بعد أن أقام الجيش الفرنسى فيها شهراً وسبعة أيام ، ثم أفرج عن ملك فرنسا وعن أخيه وزوجته ورفاقه وأقلعوا إلى عكا ، وقد بلغ عدد أسرى هذه الحملة (١٢١١٠ أسيراً) .

* *

● الجيش الأيوبى :

كان قوام الجيش فى نهاية العصر الأيوبى وفى مستهل عصر المماليك ثلاث فئات من الأجلاب الذين نشأوا فى القوقاز وآسيا الصغرى أو غير ذلك من الأقاليم ، وأولى تلك الفئات المماليك السلطانية ، وهم الذين يشتريهم السلطان أو يهدون إليه أو يرثهم من مماليك من سبقه فى السلطنة ، ومن هذه الفئة **المماليك الخصكية** : وتتميز أفرادها عن سائر المماليك السلطانية بأنهم شبوا فى خدمة السلطان ، فيتولى تربيتهم ثم يعتقهم .

أما الفئة الثانية من الجيوش النظامية : فهى أجناد الحلقة وأفرادها من محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهى أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت فى العصور الحديثة ، وكانت تتناول مرتباتها من ديوان الجيش .

والفئة الثالثة : مماليك الأمراء ، وهى لا تختلف عن المماليك السلطانية ، إلا أن أفرادها تابعون لأمرائهم ، وطبيعى أن الوحدات الحربية التى كان الأمراء يتقدمون بها لمساعدة السلطان فى حروبه كانت تتألف من هذه الفئة .

وكان أمراء الجند على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أمراء المئين مقدمو الألوف ، وعدة كل منهم مائة فارس ، وكانت هذه الطبقة أعلا مراتب الأمراء ، ومنهم أكابر أرباب الوظائف والنواب .

الطبقة الثانية : أمراء الطبلخانة ، وعدة كل منهم فى الغالب أربعون فارساً ، وازداد أحياناً هذا العدد إلى السبعين والثمانين ، ولا تكون الطبلخانة لأقل من أربعين .

الطبقة الثالثة : أمراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس .

الطبقة الرابعة : أمراء الخمسات ، وهم قليلون .

أما الجنود : فقد تألف منهم طبقتان :

الطبقة الأولى : المماليك السلطانية ، وهم أعظم الجنود شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم مخصصات ، ويتوقف عددهم من الكثرة والقلة على مشيئة السلطان .

الطبقة الثانية : أجناد الحلقة ، وعددهم كثيرون غير نظاميين ، وينضمون إلى الجنود عند الضرورة .

وقد زاد نفوذ المماليك فى أواخر عهد الأيوبيين ، وخاصة بعد انتصارهم على الصليبيين فى معركة المنصورة ، تلك المعركة التى كانت من أقوى عوامل ظهور شأن بيبرس والمماليك البحرية ، الذين بفضلهم تخلصت البلاد الإسلامية من بلاء الغرب .

* * *

المماليك البحرية
(١٢٥٠م - ١٣٨٢م)

ورث المماليك أسرة الأيوبيين ، فاتسعت الامبراطورية المصرية فى عهدهم حتى شملت السودان والحجاز والشام وبعض جزر البحرين الأبيض والأحمر ، وفى طليعة سلاطينهم الظاهر بيبرس البندقدارى ، ذلك القائد الماهر والسياسى الذكى والمصلح الحازم الذى قضى معظم سنى حكمه خارج مصر يعلى كلمتها ويهزم أعدائها : حصّن الاسكندرية وحمى مصب النيل ضد الغزوات الخارجية ، كما أعاد للأسطول المصرى سابق مجده : فبنى أربعين سفينة حربية ، واحتفظ بجيش منظم علاوة على ربط ثغور البلاد ومدنها بشبكة من الطرق والدروب .

لم يكن الظاهر بيبرس أول سلاطين المماليك البحرية ، فقد كان أولهم : « عز الدين أيبك التركمانى » ، وثانيهم : ابنه ، وثالثهم : الملك المظفر « قطز » الذى كان على يديه هزيمة التتار فى معركة « عين جالوت » بفلسطين بعد أن أبادوا الدولة العباسية ببغداد قبل زحفهم على الشام .

وتفصيل هذا : أنه فى أوائل عام (١٢٦٠م) أرسل هولاكو ملك التتار خطاباً هدد فيه سلطان مصر إذا امتنع عن التسليم إليه ، فكان رد « قطز » : أنه أمر بقتل الرسل الذين حملوا الخطب وعلقت رؤوسهم على باب زويلة (المتولى) ، ثم جمع أمراءه للمشاورة فى الأمر ، وقد أحدق الخطر بمصر ، فقر القرار على القتال وألا ينتظروا تقدم التتار إلى الحدود المصرية .

خرج « قطز » السلطان الشاب على رأس جيش مصر من قلعة الجبل ومر بالصالحية ، ثم بلغ حدود فلسطين قبل أن يقوم التتار بتجميع قواتهم ، فاضطر قائدهم « بيدر » إلى التخلى عن غزة فاحتلها القائد بيبرس وتقدم متجنباً التلال ومتبعاً طريق الساحل إلى يافا وقيصرية إلى أن وصل جبل « الكرمل » جنوب حيفا وعسكر الجيش فى سهل أزدرائيلون قرب عكا التى كانت فى أيدى الصليبيين وكانت خطة قطز وبيبرس فى هذه المعركة تقليداً رائعاً لأسلوب التتار أنفسهم فى

القتال ، وعلى الأخص طريقة التظاهر بالفرار ، وقد رأى هذان القائدان أن وجود المستنقعات حول بلدة بيسان سيضطر التتار للتحول فى تقدمهم صوب الجنوب الغربى ، وأنهم لا بد نتيجة لذلك أن يصطدموا بالنصف الآخر من خطوط المصريين ، فدبروا خدعة باهرة تقضى بأن ينسحب الجزء الذى يشتبك به التتار أولاً متظاهراً بالفرار تاركاً ثغرة فى جبهة الجيش المصرى ، فيندفع فيها التتار اندفاعهم المعهود ، وبعد أن يتورطوا فى الاختراق إلى مسافة كافية يطبق عليهم المصريون من جهات ثلاث (١) .

بدأت المعركة فى صباح يوم الجمعة (٣ سبتمبر عام ١٢٦٠م) ، كما توقع قطز بهجوم عنيف قام به التتار على يسار الجبهة ، فتظاهر المشاة بالفرار والهزيمة، فحدثت ثغرة اندفع فيها التتار بقوة فتركهم المصريون حتى وصلوا فيها مسافة مناسبة ، ثم أطبقوا عليهم وانقض السلطان بفرسانه المنتخبين من فرقة الملك الصالح إبان قرع الطبول كأنها الرعد القاصف .

وفى أثناء ذلك عاد المتظاهرون بالفرار من المشاة واشتركوا فى القتال بعزم صادق ، واستمرت المذبحة من الصباح حتى الظهر ، وانتهت بهزيمة التتار وقتل قائدهم « كتيبغا » ، وقام فرسان بيبرس على الأثر بمطاردة التتار حتى أخرجوهم من كل سوريا وفلسطين .

ولم تكن تلك الهزيمة هى الأخيرة للتتار على يد المصريين ، بل لقد اصطدمت بهم فى معارك شتى جحافل مصر وهزمتهم على أيدى بيبرس وقلاوون ، وكان انتصار مصر فى « عين جالوت » منقذاً للمدنية الإسلامية وللعالم أجمع من فظائع التتار ودرساً للصليبيين الذين كانوا ما زالوا قابعين فى بعض مدن الساحل السورى داخل قلاعهم .

لكن لم ينعم « قطز » طويلاً بهذا الانتصار الحاسم ، فلم يكد يصل إلى مصر الصالحية التى خرج منها على رأس جيشه الظافر حتى تمت مكيدة قتله بسيف القائد بيبرس ومماليكه وتركوه جثة هامدة على الأرض .

---

(١) معركة عين جالوت : للصاغ محمود محمد السرساوى ، مجلة الجيش ، المجلد السابع ص ٢٤٣ - ٢٤٨ عام (١٩٤٤م - ١٩٤٥م) .

هكذا انتهت حياة بطل عظيم ، ثم خلفه على العرش الأمير بيبرس .

● **الظاهر بيبرس** :

هزم بيبرس المغول فى عدة مواقع : أهمها فى بيرة عام (٦٧١ هـ/١٢٧٨م) ، وفى عودته قصد الكرك فقتل سبعة الاف من أعدائه واستولى على العرش السلجوقى ، ولم يكن المغول وحدهم الذين ذاقوا ألم السيف المصرى فلقد أعلن بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات فى فلسطين ، حيث تحالف الفرنجة مع المغول واستولى على قيصرية وعرصوف (٦٤٣ هـ/ ١٢٦٥م) ، وأذل مدافعيها من المسيحيين وصمم بيبرس على قطع علاقة الصليبيين بتلك البلاد نهائياً ، فاستولى على يافا عام (١٢٧٣م) ، وسمت بلفورت وأنطاكيا عاصمة سوريا الشمالية التى أحرقت عن آخرها ، ثم وضع يده على حصون الصليبيين وقلاعهم ، وفى أيامه استولى الأسطول المصرى على قبرص .

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تصدر وتطاع من بيراموس والفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع ، وكانت المدن المقدسة : « مكة والمدينة وبيت المقدس » فى قبضته ، كما وضع يده على سواكن وغيرها على شاطىء البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وبرابرة الشمال ومغول العلجة ، وأصبح « خانهم » حليفاً له ، وأرسل ابنته للزواج منه ، وتبادل الظاهر مفوضية مع الامبراطورية الشرقية ، وشيّد مسجداً فى الآستانة ، واتصلت تجارة المصريين بصقلية وأسبانيا وفرنسا .

وما زال لبيبرس الذكر الحسن عندنا ، فقصته يرويها الشعراء فى مجالس أهل البلاد ، ومن المساجد التى شيّدها : مسجده الكبير بالحسينية والمعروف بـ « جامع الظاهر » .

وبوفاته حدثت منازعات بشأن تولى الملك انتهت بتولى السلطان « قلاون » سنة (١٢٧٩م) ، فبقى الملك فى بيته أكثر من مائة سنة ، ومن مآثره أنه هزم التتار فى معركة فاصلة فى حمص ، وكانوا يتأهبون للإغارة على مصر مرة أخرى ، ومن مآثره أيضاً إنشاؤه البيمارستان الكبير والمعروف الآن بـ « مستشفى قلاون » بالنحاسين ، وبجانبه المدرسة والقبة التى دفن بها .

وخلفه ابنه « الأشرف خليل » ، وفى عهده سقطت عكاء فى أيدى المسلمين وتبعتها بقية مدن الشام الساحلية ، وقضى على ما كان باقياً من حكم الصليبيين هناك عام (١٢٩١م) .

وقد هزم التتار أيضاً « الناصر بن قلاوون » فى معركة فاصلة قرب دمشق عام (١٣٠٣م) ، فكانت هذه رابع مرة صد فيها التتار عن الديار المصرية .

استطاع هؤلاء السلاطين البواسل أن يجعلوا بحر الروم بحيرة مصرية وصدوا هجوم التتار ، وجعلوا منهم حلفاء وقضوا نهائياً على الصليبيين ، ومهما يكن من شيء فإن جهود الغزو والفتح والنضال لم تشغلهم عن ترقية أحوال مصر ، فأقاموا المدارس والمشافى والقناطر والمساجد ، وخلدوا ذكراهم المجيدة فى كل مكان وجعلوا من القاهرة أجمل مدن الشرق بما أدخلوه عليها من جديد فى طرز العمارة والفنون .

وكفى أن نذكر من مآثرهم الخالدة فى القاهرة مدرسة الناصر قلاوون بالنحاسين والمدرسة الجاولية ، وخانقاه بيبرس الجاشنكير ومسجد السلطان الناصر محمد بالقلعة وقصر بشتاك وجامع المارداني ومسجد السلطان حسن بميدان صلاح الدين .

وكان آخر سلاطين المماليك البحرية الصالح حاجى بن الأشرف شعبان الذى انقرضت فى أيامه هذه الدولة وقامت على أنقاضها أسرة المماليك الشراكسة عام (١٣٨٢م) .

* * *

المماليك الشراكسة
(١٣٨٢م - ١٥١٧م)

ولع سلاطين الشراكسة المصريين بالعلوم وإقامة العمائر التى نراها إلى اليوم فى القاهرة ، وأشهر ملوكهم السلطان برقوق (١٣٨٢م) [١] ، وفى أيامه أراد التتار بعد اعتناقهم الإسلام امتلاك مصر بقيادة قائدهم العظيم « تيمورلنك » ، فأرسلوا إليه كتاباً يطلبون منه تسليم مصر طوعاً [٢] ، فامتنع واتحد مع أمراء شمالى الشام وسلطان آل عثمان وأعد العدة لصدهم ، ولكنه مات قبل الحرب عام (١٣٩٩م) فقام ابنه « فرج » ونجح فى إبعاد الخطر التترى عن مصر بدون قتال ، وانتهت أيامه بالعزل وأخيراً بقتله .

ومن أعظم سلاطين الأسرة : السلطان الأشرف « برسباى » (١٤٢٢م) الذى قضى على مملكة قبرص نهائياً ، وكانت تهدد مصر على الدوام بعد انسحاب الصليبيين من الشام .

كان برسباى أعلا ملوك الشراكسة همة وأشدهم عزيمة ، وقد وصلت الحدود المصرية فى عهده إلى أعالى الفرات ، وكان الجيش فى أيامه يكلف الدولة حوالى (٣٠٠ ألف جنيه) سنوياً .

قلنا : إن أهم حملات برسباى تلك التى وجهها ضد قرصان البحر الذين اتخذوا من جزيرة قبرص وكراً لأعمالهم الشريرة ، فسيّر السلطان أسطولاً مكوناً من عدة سفن عقد لواؤها لأمير البحر المصرى « جرباش » ، وعاد منتصراً إلى القاهرة ومعه الغنائم والأسرى .

وفى العام التالى رغب السلطان احتلال قبرص ، فتم للحملة المصرية إخضاع

---

(١) كان للسلطان برقوق ولع خاص فى اقتناء الأسلحة والخيول والعتاد والاستكثار من الجند ، وفى أيامه أعيد بناء خزائن السلاح بالإسكندرية .

(٢) كان قد أتم فتوحه فى الهند والعراق وبعض أجزاء آسيا الصغرى وشمال الشام .

الجزيرة بعد معركة « شيروكينا » ، ووقع ملكها « لوزبنيان » أسيراً فى أيدى المصريين ، وتمت غزوة قبرص ونال الغزاة منيتهم وحققوا مآربهم وعادوا إلى مصر ثم أرسلوا رسلاً يعلنون الخبر وقضوا أياماً يحتفلون بالنصر ، وكان السلطان ورعيته متعطشين إلى سماع أخبار الحملة التى انقطعت عنهم ، وأخيراً وصلت أنباء الظفر إلى القاهرة ، فأعلنت الأفراح وتبودلت التهانى ودامت معالم السرور ثلاثة أيام كاملة ، وبدأت الاستعدادات ومعالم الزينة والحفاوة تنظم لاستقبال المنتصرين عند عودتهم لمصر .

وفى أوائل أغسطس وصلت مقدمة الأسطول المصرى إلى دمياط ، فخرجت القاهرة لاستقبال مواكب النصر تشق طريقها من الصحراء إلى قلب المدينة التى تدفقت بألوف الخلق الوافدين من الأقاليم لاستقبال الجيوش المنتصرة ، وكان فى طليعة الموكب الملك « جانوس » الأسير ، والقائد « موسينى سوارس » يمتطيان بغلين وأمامهما تاج قبرص والأعلام الملكية تتبعهما الألوف ، فلما وصل الموكب إلى القلعة نزل الملك عن دابته أمام باب المدرج ، وقبل الأرض وخلع غطاء رأسه واقتيد مكبلاً بالحديد إلى حضرة السلطان ، وكان يحيط به علية رجال دولته وعلى رأسهم شريف مكة ، وتصادف أن كان حاضراً هذا الجمع العظيم طائفة من رجال الوفود الأجنبية ، فأمر « جانوس » بتقبيل الأرض أمام السلطان ، ولكنه أغمى عليه ، فلما أفاق انحنى أمام السلطان ثم انتحى جانباً لكى يجلى السلطان عينيه بمشاهدة الغنائم والأسلاب والأسرى ، ثم أحضر « جانوس » إلى مجلس السلطان وقبل الأرض ثانية وترك واقفاً لحظة طويلة ينظر إليه السلطان الذى أمر بأن يودع فى برج من أبراج القلعة ويعامل معاملة تليق بمقامه .

وفى يوم آخر سأل السلطان الملك لوزينيان عن الفدية التى يفدى بها نفسه ، فأجاب :

« لا شىء عندى سوى حياتى ولكم أن تتصرفوا فيها كيفما شئتم » .

فتوسط القناصل الأوروبيون فأمر السلطان بإكرام وفادة الملك وقبل تخفيض قيمة الفدية إلى أربعمائة ألف دينار ، وصرح لأحد رجاله أن يرجع إلى قبرص لجمعها اعتماداً على وعده بأن يعود كما وعد الملك بتوزيع (٧٠ ألف دينار) لرجال الحاشية ، وبإرسال عشرين ألف دينار إلى السلطان سنوياً ، وبقى الملك

ضيفاً كريماً على آسره خمسة عشر شهراً حتى جمعت الفدية ، ثم خلع عليه السلطان ثوباً ثميناً وأمر بنقله فى عربة فخمة إلى بيت الحاكم ، حيث بقى موضع إكرامه بضعة أيام قبل أن يعود إلى بلاده ، وبقيت قبرص تدفع الجزية لمصر حتى نهاية عصر المماليك (١٥١٧م) .

● غزوات رودس :

كانت محاولات سلاطين الشراكسة للاستيلاء على رودس أثناء القرن الخامس عشر رداً على ما أنزلته وزميلتها قبرص وأحلافها من الأوروبيين من الدمار بالشواطئ المصرية وثغرها الاسكندرى ليأمنوا التجارة المصرية من عبث القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن المصرية ، وللقضاء نهائياً على زعماء الفكرة الصليبية الذين اتخذوا من رودس وقبرص معقلاً للدعوة إليها وإحيائها ، مثل : آل لوزّينيان بقبرص والفرسان الاسبتارية برودس ، فكان السلطان « جقمق » عام (١٤٣٨م - ١٤٥٣م) يود أن يستقيم له مثل ما استقام لبرسباى فى مصر .

وغادرت الحملة البحرية الأولى بولاق فى اليوم الثامن من شهر أغسطس سنة (١٤٤٠م) بقيادة الأميرين تغرى برمش السلحدار وبونس المحمودى أمير آخور معهما بعض المتطوعين من أهل القاهرة ودمياط بلغ عددهم حوالى الألف ، وفى قبرص أمدّ الملك حنا الثانى الحملة المملوكية بالمؤن ، واستمدت الحملة معونة أخرى من آسيا الصغرى ، ولكن كان استعداد الرودسيين كاملاً ، فلم يظفر المصريون منهم بطائل وعادت الحملة .

وجهزت حملة ثانية عام (١٤٤٣م) ، وأخرى فى العام التالى ، ولكنهما لم يظفرا بشىء ، وكانت من نتائجهما أن ضعفت حاميات رودس وكبح جماح القراصنة ، فلم يعودوا إلى اعتداءاتهم على السواحل المصرية ، ثم عقدت معاهدة بين السلطنة المملوكية وجزيرة رودس ، ودامت العلاقات الطيبة بين الجانبين عدة سنين ، إلى أن جاء العثمانيون إلى مصر عام (١٥١٧م) ، ثم خضعت الجزيرة للعثمانيين عام (١٥٢٢م) بعد حصارها [١] .

---

(١) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى لحضرة الأستاذ محمد مصطفى زيادة - مجلة الجيش - المجلد الثامن ص ١٩٤ - ٢٠٤ .

● السلطان الأشرف قايتباى :

جاء بعد جقمق سلاطين ضعاف إلى أن ولى العرش السلطان « قايتباى » عام (١٤٦٧م - ١٤٩٥م) فى زمن نهض فيه آل عثمان نهضة جامحة عمادها الفتح ، فاستعد قايتباى وبدأ يحصن الثغور والقلاع فى البلاد الشامية والمصرية ، ويعد الجيوش لكى لا يفاجأ ، وفى ذلك الحين وصل الأمير « جم » أحد أبناء سلطان آل عثمان بعد هزيمته أمام أخيه فى معركة « يكى شهر » ، والتجأ إلى قايتباى ، فأكرم وفادته وقال : « إذا كان لا بد لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين أولى من أن نكون مدافعين » ، وبدأ يشن هجومه على المدن العثمانية فى الأناضول ويأسر حامياتها حتى دانت للمصريين عدة مدن ، وفى إحدى المعارك هزم الأمير الأزبكى المصرى الجيش العثمانى وأسر قائده أحمد الألبانى بعد أن جاهد جهاداً حسناً ، وعاد الأزبكى إلى مصر ظافراً ، وشيد جامعه بالأزبكية .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد استمرت الحرب بين الأتراك والمصريين وهما يتبادلان النصر والهزيمة إلى أن عقد الصلح بين الطرفين .

ولقايتباى قلعتان مشهورتان : إحداهما بالأسكندرية ، والأخرى برشيد ، كما شيد عدة مساجد وعمائر تعد مثلاً جميلاً للعمارة المملوكية فى مصر .

وفى أيام السلطان الغورى عام (١٥٠١م - ١٥١٦م) اكتشف البرتغاليون طريق الكاب إلى الهند ، فأثر ذلك فى تجارة مصر وجمهورية البنادقة ، فجهز أسطولاً قوياً وهاجم به البرتغاليين فى مستعمرتهم بالهند ، وانتصر على قائدهم «لورنرو» فى معركة بحرية عام (١٥٠٨م) جنوبى بومباى ، وكان أقصى مركز وصل إليه النفوذ المصرى فى الجنوب ، ولم يلبث الحال وقتاً طويلاً حتى عاد الأسطول المصرى إلى بلاد العرب ، وفى أيامه جهز السلطان سليم الأول جيوشه لفتح مصر، فأرسل سنان باشا على رأس جيش عثمانى مؤلف من أربعين ألف مقاتل، فاستولى على ديار بكر ، وقام بعده السلطان بجيش عظيم بلغ مائة ألف وخمسين ألف مقاتل ، ومعه المدافع الكثيرة العدد ، وأرسل المولى ركن الدين قاضى عساكر الرومللى مع قره جى باشا إلى السلطان الغورى للوقوف على نوايا البلاد وأحوالها .

* *

● السلطان الغورى :

توجس الغورى شراً من استعدادات السلطان سليم ، ولا سيما حين وصلت الأساطيل العثمانية إلى مياه الاسكندرية ، فاهتم بالاستعدادات الحربية ، وخرج على رأس جيش عظيم إلى حلب ، ثم عينتاب ، وتابع سيره إلى مرج دابق وبالقرب من حلب (٢٦ رجب ٩٢٢ هـ - ٢٤ أغسطس ١٥١٦م) تلاقت جنوده مع جنود الغورى فقاتلت القوات المصرية قتالاً عنيفاً وهزمت العثمانين وأسروا سبعة سناجق وبعض المكاحل ، وحاول سليم الأول الفرار بعد أن قتل من جنوده أكثر من عشرة آلاف ، ولكن دارت الدائرة فيما بعد على الجيش المصرى وقتل قائد الجيش « سودون » وملك الأمراء « سيباى » ، وكانت قوات الأعداء قد اشتد هجومها ، فوقع الغورى تحت سنابك الخيل وهرسته أقدامها ولم تظهر جثته بين القتلى .

ثم وردت الأنباء بخروج القوات العثمانية من غزة ووصولها قاطبة داخل الحدود المصرية ، فقابل الجيش المصرى هذه الإشاعة بتحصين الريدانية تحصيناً كاملاً وإقامة سور لستر المكاحل التى أقيمت ، ثم حفرت خنادق كبيرة وعرض السلطان قواته ثم تقدم بها حتى بركة الحاج ، وكانت الجنود تمتد من الجبل الأحمر إلى حقول المطرية ، وبعد أيام وصل العثمانيون بلبيس وتحولوا منها إلى بركة الحاج ، فاضطربت أحوال الجيش وأغلقت أبواب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغيرها من أبواب القاهرة ، ولما ثبت للسلطان وصول مقدمة الجيش العثمانى إلى بركة الحاج جمع قواته وصار يرتبها فى مواقعها بالريدانية وحصن وطاقه بالمكاحل والمدافع ، وكان الخندق الذى أكمل حفره يمتد من الجبل الأحمر إلى حقول المطرية ، وجعل خلف المكاحل نحو ألف جمل عليها المؤونة وبدأ ينتظر وصول العثمانيين مع أنه لو تقدم لمقاتلتهم ببركة الحاج لكان من المحتمل أن ينتصر عليهم ، ولكن بعد أيام زحف العثمانيون حتى وصلوا إلى الجبل الأحمر ، فلما سمع طومان باى بتقدم الأعداء قام فى الحال بقواته التى تلاقت معهم فى ضواحى الريدانية ، وفى ذلك الميدان حصلت المعركة الفاصلة بين المصريين والعثمانيين ، كان ذلك اليوم هو (التاسع والعشرين من ذى الحجة عام ٩٢٢ هـ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٥١٧م) ، ولم تدم المعركة أكثر

من ساعة قضى فيها على الجيش المصرى وأصيب فى صميم كبريائه ، أما السلطان «طومان باى» فقد صمد فى مكانه وهو يقاتل بنفسه فى قليل من الرماة والمماليك السلحدارية ، ولكنه لما رأى قلة عدد من أصبحوا حوله خشى أن يقبض عليه وينكل به فطوى صنجقه السلطانى وولى واختفى ، وقيل : إنه قصد طره ، فما كان من إحدى فرق الجيش العثمانى إلا أن اتخذت طريق تقدمها من تحت الجبل الأحمر ، ونزلت على الوطاق السلطانى فنهبته واستولت على جميع معدات الجيش فيه ، بينما استطاعت جماعات عدة من فلول الجيش العثمانى دخول القاهرة من نواحٍ شتى ، وبعد أيام قليلة دخل السلطان سليم إلى القاهرة من باب النصر مخترقاً المدينة فى موكب حافل وأمامه الجنود المشاة والخيالة حتى وصل باب زويلة ، ثم عرج من تحت الربع وتوجه من هناك إلى بولاق ، واستمرت المناوشات بين فلول الجيش المصرى والعثمانى مدة حتى انتهى الأمر بشنق السلطان طومان باى على باب زويلة ، فتخلص السلطان من منافسه ، وأقام السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل قضى أكثرها بالمقياس بالروضة ، ثم غادر البلاد .

* *

● **الحامية العثمانية :**

نصب السلطان سليم على البلاد حاكماً يلقب بالباشا ، وجعل فى مصر ثلاث إدارات : كل منها تراقب أعمال الأخرى ، فلا يخشى من اتحادها وتمردها .

فالقوة الأولى « الباشا » أهم واجباته : إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها ، وليس له أن يغادر القلعة .

والقوة الثانية الوجاقات الستة ، وواجباتها : حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وجباية الخراج ، وقد وزعت هذه الوجاقات فى القطر المصرى وفى المراكز الرئيسية من القطر ، وكان عددها ستة آلاف خيال وستة آلاف من المشاة ، وكان كل وجاق تحت قيادة « أغا » ينوب عنه فى الآستانة ضابط .

وقد ذاقت البلاد فى العهد العثمانى ضروب الذل والجهل والفقر ، ومع ذلك استطاع على بك الكبير أن يشق عصا الطاعة ويعلن استقلال مصر ويحارب

الترك، ولولا خيانة أحد رجاله « أبو الذهب » واتفاقه مع العثمانيين لانتهى سلطانهم فى مصر قبل أوانه .

* *

● ظفر مصر فى ميادين خالدة :

وقد كان الأزهر فى العهد التركى - المعهد الكبير الذى انبعث منه العرفان - ولولاه لانطفأت شعلة العلوم فى مصر - ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والچراكسة حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل فى أيام الفواطم والأيوبيين - ويعود لهؤلاء السلاطين الفضل فى إنقاذ الثقافة الإسلامية من غزوات المغول التى كادت تقضى على المعرفة العربية فى المشرق ، وكانت مصر محط أنظار الناطقين بالضاد ممن فروا أمام المغول من فارس والعراق وخوراسان والشام واستظلت العلوم والآداب برعاية سلاطين المماليك فى مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء : كالبوصيرى صاحب « البردة » و« السراج الوراق » ، وابن نباتة المصرى ، والقلقشندى ، والأبشيهى صاحب « المستطرف» وابن منظور صاحب « لسان العرب » ، وابن هشام النحوى ، وشمس الدين السخاوى صاحب « الضوء اللامع » ، وابن خلكان المؤرخ صاحب « وفيات الأعيان » ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن دقماق ، والمقريزى صاحب «الخطط» ، وأبو الفداء الجغرافى المؤرخ ، والذهبى ، والنويرى ، وابن تغرى بردى صاحب « النجوم الزاهرة » ، وجلال الدين السيوطى ، والدميرى ، وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى .

واستضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق كالإمام ابن تيمية وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون الذى أقام بمصر زهاء عشرين عاماً.

ولقد كان أكبر نصيب لمصر فى الثقافة الأدبية الإسلامية إنما هو ما كتبه المصريون فى التاريخ ، والحق أنه ليست هناك أمة إسلامية أخرى تستطيع أن تفخر بمثل ما خلفه المصريون من دراسات فى تاريخ بلادهم وأنظمتها السياسية ، والمؤرخون المصريون فى عصور دولتى المماليك أو الدولتين الفاطمية والأيوبية لم يكتبوا فى التاريخ السياسى وفى التراجم فحسب ، بل فاقوا سائر الكتاب المسلمين فى دراسات الخطط والآثار التى يعتبر المقريزى بطلها الممتاز [١] .

---

(١) مصر والحضارة الإسلامية : للدكتور زكى محمد حسن - العدد (١٥) من رسائل الثقافة العسكرية .

وقد أنجبت مصر عدداً وافراً من المؤرخين ، وحسبنا أن نذكر ابن الحكم ، وابن الداية ، والكندى ، وابن زولاق ، وابن أبى أصيبعة ، وابن الراهب القبطى ، والعماد الأصفهانى ، وأبا شامة ، وابن واصل ، والقفطى ، وابن خلكان ، وابن شداد ، والذهبى ، والمقريزى ، والعينى ، وابن تغرى بردى ، وأبا الفداء، والسخاوى ، وغيرهم .

وكانت مصر والشام مهد الموسوعات والمجاميع الإسلامية ، فإن معظم الذين ألفوا الكتب الجامعة للموضوعات المختلفة كانوا من المصريين أو كانوا من الشاميين فى عصر اتحاد البلدين ، فالنويرى صاحب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » كان من رجال السلطان المملوكى « الناصر محمد قلاون » ، وابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » تولى القضاء بمصر فى عصر المماليك ، وأبو العباس أحمد القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » كان أيضاً من الموظفين المصريين فى ذلك العصر ، وجلال الدين السيوطى تولى الإفتاء بمصر وتوفى فى بداية القرن السادس عشر الميلادى بعد أن ألف الكتب والرسائل العديدة فى التفسير والحديث والتاريخ والفقه وعلوم اللغة وغيرها .

ومن العلماء المصريين الذين نبغوا فى ميدان العلوم : أبو كامل شجاع بن أسلم ، وعلى بن يونس ، وابن الهيثم ، وعلى بن النفيس .

أما شجاع : فقد ذاع صيته فى علم الجبر فى القرن العاشر الميلادى وكتب فيه .

وابن يونس : اشتهر بالرياضيات والفلك فى العصر الفاطمى ، واخترع الرقاص أو بندول الساعة الدقاقة ، وكان لأرصاده الفلكية وبحوثه العلمية أثر كبير فى علم الفلك .

أما ابن الهيثم : فكان أكبر علماء المسلمين فى الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة فى العصور الوسطى ، ولولاه لما أتيح لعلم البصريات أن يصل إلى ما هو عليه الآن ، وقد ترجم كتابه فى هذا العلم إلى اللاتينية سنة (١٥٧٢م) ، وأخذ عنه علماء أوروبا جميع معلوماتهم ، ولا سيما فى انكسار الضوء ، وتشريح العين ، وكيفية تكوين الصور على شبكة العين [١] .

ومن اشتهروا بمصر فى ميدان الطب : **على بن النفيس** الذى كان رئيس الأطباء

(١) نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية : من مقال الأستاذ قدرى حافظ طوقان ص ٨١ ، ١١٨ ، ١١٩ .

فى مارستان قلاون بالقاهرة ، والمتوفى سنة (١٢٨٨م) ، وقد كتب شرحاً لتشريح ابن سينا ، وقد اهتدى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى (دورة الدم من البطين الأيمن فى القلب إلى الرئتين ثم إلى البطين الأيسر) ، قبل أن يكتشفها الأوروبيان « ميشيل رفت » عام (١٥٥٦م) ، و« ريالدو كولومبو » عام (١٥٥٩م) ، وسبقهما إلى ذلك بنحو ثلاثة قرون .

ولا ريب فى أن أعظم علماء الحيوان عند المسلمين هو محمد بن عيسى الدميرى المصرى المتوفى بالقاهرة سنة (١٤٠٥م) ، وأحسن مؤلفاته كتاب « حياة الحيوان الكبرى » ، وقد ترجم إلى الإنجليزية والتركية .

ومن العلوم التى نضجت فى عصر المماليك : فنون الحرب ، والصيد ، والفروسية ، وقد نبغ فيها غير واحد خلفوا آثاراً ، منها :

* « تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين » : للأمير لاجين بن عبد الله الذهبى الحسامى الطرابلسى سنة (١٣٣٧م) .

* « كشف الكروب فى معرفة الحروب » : لعماد الدين موسى بن محمد اليسوفى المصرى سنة (١٣٥٧م) ألفه للملك السلطان الظاهر جقمق فى فن الحرب.

* « الفروسية » : لبدر الدين بكتوت الرماح الخازندارى ، نائب الأسكندرية سنة (١٣٦٩م) .

* « الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية » : لمحمد بن منكلى نقيب الجيش فى زمن الأشرف شعبان سلطان مصر سنة (١٣٦٣م - ١٣٧٧م) ، ويبحث فى السفن البحرية وقتال البحر ، وللمؤلف كتاب اسمه « التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية » .

* « الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية » : لطيبوغا الأشرفى البكلميشى الرومى سنة (١٣٦٨م) ، ويبحث فى علم ركوب الخيل ، ولا سيما فى الحرب .

* « بغية القاصدين فى العمل بالميادين » : يبحث فى الفروسية للأمير سيف الدين الماردينى صاحب حلب سنة (١٣٧٨م) .

* « خزانة السلاح » : ألف بإشارة السلطان محمد شاه بن السلطان مظفر شاه وقد فرغ من تأليفه عام (١٤٣٦م) .

* « الأنيق فى المجانيق » : لأرنبغا الزردكاش سنة (١٤٦٢م) ، وقد وصف فيه أنواع المجانيق وكيفية العمل بها .

* « السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية » .
* « أرجوزة فى رمى السهام » : لأبى بكر الحلبى سنة (١٥١٤م) .
وغير ما ذكرناه الكثير مما لا تتسع صفحات هذا السفر الصغير لشرحه .

ومن خير من أنجبهم عصر المماليك : **أحمد بن ماجد** الذى وضع الكتب والرسائل فى علم البحار وتسيير السفن ، وكان لمؤلفاته وخبرته فضل كبير على الملاحة البرتغالية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد .

أما فى ميدان الفنون الإسلامية : فقد كانت مصر مهد طرازين من أبدع الطرز الإسلامية ، هما : الطراز الفاطمى ، والطراز المملوكى ، ولا نجد لهذا الإنتاج نظيراً فى سائر الأقطار الإسلامية - اللهم إلا فى إيران - وحسبنا أن نقرأ وصف الألطاف الفنية التى جمعها الخلفاء الفاطميون أو نرى التحف المحفوظة فى المتاحف والمجموعات الفنية الخاصة ، أو نقلب النظر فى العمائر الإسلامية التى تزخر بها مدينة القاهرة والتى جعلتها أعظم متحف للطرز المعمارية الإسلامية على ممر العصور [(١)] .

وهكذا نرى مصر ظافرة فى ميادين العلوم والفنون والآداب بجانب ظفرها الحربى ، ومع الجمود الذى لازم مصر فى عهد حكم الأتراك ظهر بعض علماء الدين والتصوف واللغة والأدب والتاريخ ، نذكر منهم : « شهاب الدين المصرى» سنة (١٦٥٦م) : الأدب اللغوى ، والسيد مرتضى الزبيدى سنة (١٧٩١م) صاحب « تاج العروس » ، والذى كان مقرباً للأمير إسماعيل كتخدا عزبان وأولاده ، وشمس الدين الشامى صاحب « التراجم والسير » ، وابن إياس المؤرخ صاحب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، وابن زنبل الرمال مؤرخ عصر الأتراك فى مصر . . . إلخ .

* * *

---

(١) مصر والحضارة الإسلامية : الدكتور زكى محمد حسن ، العدد (١٥) من رسائل الثقافة العسكرية .

الفرنسيون فى مصر

ثم جاء « نابليون بونابرت » إلى مصر على رأس حملته المشهورة عام (١٧٩٨م) وكان موفقاً فى بادئ الأمر ، فقضى على شجاعة المماليك ، ولكنه لم يقض على وطنية المصريين الذين ظلوا يحاربونه ويقاطعونه ويفتنون فى مقاتلة رجاله فى حرب العصابات فى شوارع القاهرة ومديريات الوجهين البحرى والقبلى حتى ضاقت بهم المشانق ذرعاً .

وعن ذلك يقول مؤرخ الحملة الفرنسية الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه « الحركة القومية » :

« بدأت هذه القوة تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاها الجيش الفرنسى فى البلاد ، وظهرت الأمة بشخصية جديدة وروح فتية وعزيمة قوية كوّنتها الحوادث والشدائد وصقلتها التجارب والآلام ، كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح السياسى ، وتطور فى الحياة القومية ، رأت الأمة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينها وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع إلى المجد والعلا ، رأت نابليون بونابرت يخطب ودها ويشيد بعظمتها ويتملق كبرياءها القومى ويتغنى بماضيها ويعلن حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها .

ثارت فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة ، فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة ، وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك ، قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش ، ورأت خلاصة علماء فرنسا وأطبائها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وفلسفتهم وحضارتهم وتجاربهم ، رأت علوماً وأفكاراً جديدة ومنشآت ونظماً حديثة ، رأت « ديواناً » مؤلفاً من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصوراً على المماليك وأيقظت الحوادث فيها روح المقاومة الشعبية ، تلك الروح التى تنهض بالأخلاق وترقى الأفكار وتفتق الأذهان وتغير البصائر ، وتغرس الفضائل فى النفوس ، وأخذ ترادف الحوادث فى خلال تلك السنوات الثلاثة يمزق أستار الصمت والجمود التى كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط .

فلا غرو إن ظهرت الأمة المصرية العريقة من الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولدتها الحوادث ، وأن تقتحم ميدان النضال السياسى بروح معنوية جديدة تختلف كثيراً عن حالتها القديمة ، وكذلك الأمم المستعدة للرقى تتطور نفسيتها وتتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات ، وهناك يظهر مبلغ استعداد كل أمة للرقى ومقدار ما هو كامن فى قرارة نفسها من المواهب الدفينة ، فالأمة المصرية التى ظلت السنين الطوال رازخة تحت نير الاستعباد لم تفقد مواهبها القديمة التى ورثتها عن المدنيات المتعاقبة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد ، يعلوها الصدأ ، فما أن صدمتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها فى لهب النار ، ونهضت الأمة فى وجه الاحتلال الأجنبى تحمل بين جنبيها قوة حيوية كبيرة ، ظهر الشعب المصرى فى الميدان قوياً فتياً لا يمل الجهاد ولا ينكص على الأعقاب ، ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناضل عن كيانه فى وجه العوامل المثبطة والقوات المتألبة عليه، وإذا تتبعت التقلبات التى أعقبت جلاء الفرنسيين رأيت العامل القوى ذا أثر فعال فى سير الحوادث وتطورها ، فهذا العامل الوحيد التى تمخضت عنه المقاومة المستمرة فى عهد الحملة الفرنسية أخذ ينمو ويترعرع ويشتد ساعده ، وأبى أن يعود إلى نظام الحكم القديم ، أو أن يكون مطية لأهواء الدول الطامعة فى وادى النيل، وجعل يتطلع إلى نظام للحكم أرقى من النظم التى رزخت تحتها البلاد السنين الطوال » .

كانت هذه قوة الشعب لأنه لم يكن لمصر فى ذلك الحين جيش وطنى .

* * *

محمد على

بعد خروج الفرنسيين من مصر ظهر على مسرح الأحداث المصرية الضابط محمد على الذى تقلد ولاية مصر عام (١٨٠٥م) وهو الرجل العظيم الذى يعتبر مؤسس نهضة مصر الحديثة .

رأى محمد على أن الجيش هو الدعامة التى يشيد عليها ملكه الجديد ، فوضع نواة الجندية المنظمة فى أسوان عام (١٨٢٠م) ، وأنشأ أول جيش قومى عرفته مصر فى تاريخها الحديث ، وعلى الرغم من قلة عدد السكان وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل استطاع أن ينشئ جيشاً حديثاً وأسطولاً قوياً، وأن يمدهما بكل ما يحتاجان إليه مما يصنع فى قلب البلاد ، ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل الذى اضطر إليه محمد على فى مصر والحجاز والمورة وسوريا والأناضول .

أنشأ محمد على مدارس شتى للتعليم العسكرى ، وقسمه إلى درجات ، ومدرسة للطب ، ومستشفى عسكرياً ، ومدارس عدة للمشاة ، ومدرسة للفرسان ومدرسة للمدفعية ، ومدرسة للهندسة العسكرية . . . إلخ [١] .

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون فى البلاد كل حاجاته من السلاح والذخيرة والمؤنة والأدوات والملبس وما إلى ذلك ، فقد أقام محمد على مصانع الذخيرة والأسلحة فى مصر ، وبنى الحصون المختلفة على سواحل مصر لأغراض الدفاع .

أنشأ محمد على كل هذا حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش ، ومما ينبغى إبرازه هنا أنه استطاع أن ينظم جيشاً كبيراً وأسطولاً ضخماً ، وأن يقيم كل هذه المصانع والمعاهد المتعددة لتدريب الجيش وتخريج رجاله وتغذيته بحاجاته جميعاً، وأن يستمر على ذلك زمناً طويلاً ، ويخوض حروباً شتى معتمداً على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها ومن غير أن يقترض قرشاً واحداً من الخارج .

---

(١) كتاب « الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير » للمؤلف .

لم يكد محمد على يثبت دعائم ولايته الجديدة حتى وصلت إلى الاسكندرية حملة إنجليزية بقيادة الچنرال « فريزر » ، ونزلت قوة أخرى فى رشيد بقيادة الچنرال « ويكوب » .

نزل جنود الحملة الأولى إلى المدينة بأمان ، أما الثانية : فما كادت تشتمل أحياء رشيد على جنودها حتى أصدر محافظها « على بك السلانكلى » أوامره إلى أهلها بالمقاومة والقتال ، فسقط الكثيرون منهم قتلى ومن بينهم قائدهم ، ولاذ الآخرون بالقهقرى إلى الإسكندرية بطريق أبى قير ، وبلغت خسائرهم (١٧٠ قتيلاً) و(٢٥٠ جريحاً) ، وأسر المصريون منهم (١٢٠ أسيراً) .

أصاب هذا الظفر المصرى الجيش الإنجليزى فى كبريائه ، وأراد الچنرال «فريزر» الانتقام ، فعهد إلى الچنرال « ستوارت » قيادة حملة أخرى إلى رشيد، ودارت المناوشات بين الإنجليز والمصريين الذين وصل إليهم الإمداد بقيادة «طبوز أوغلى » ، واستمر القتال عنيفاً عدة أيام حتى انتهى بانتصار المصريين فى معركة الحماد ، وبلغت خسائر الإنجليز (٤١٦ قتيلاً) ، و(٤٠٠ أسيراً) ، وأسرعت قوات الچنرال « ستوارت » وكانت مرابطة فى جنوب رشيد بالانسحاب قبل أن يقضى عليها المصريون ، فوصلت إلى أبى قير ، ومن هناك استقلوا السفن إلى الإسكندرية .

كانت معركة الحماد (٣٠ أبريل سنة ١٨٠٧م) خاتمة هزائم الحملة الإنجليزية وأسقطت هيبة القادمين ، وخاصة لما جمع « طبوزأوغلى بك » أسراهم وشحنهم فى السفن إلى القاهرة ليشاهد الناس نتيجة انتصار رجال مصر ، وبوصولهم سيقوا من بولاق إلى الأزبكية ومنها إلى القلعة ، وكان عددهم (٤٨٠ أسيراً) .

وتوقع محمد على أن يمتنع الإنجليز فى الاسكندرية بعد وصول الإمداد إليهم ، فأخذ يعد العدة للزحف إلى الاسكندرية ليجلى الإنجليز عنها ، ولكن جاءه رسول من قبل الچنرال « فريزر » يحمل إليه رسالة المفاوضة فى الصلح وشرطها الأول جلاء الجيش الإنجليزى عن مصر .

* *

وجه محمد على جل عنايته إلى الجيش الذى سيدعم عليه ملكه فى وادى النيل

والذى ساعد به تركيا فى جميع محنها ، وكانت محنتها الأولى فى بلاد العرب، فأوفد أولاً ابنه طوسون ثم إبراهيم على رأس الجيوش المصرية لإخضاع الثورة بها فانتصرت فى عدة معارك دامية نذكر منها بسل والدرعية ، وفتحت المدينة ومكة والطائف ، ودامت الحرب ثمانى سنوات انتهت بظفر إبراهيم ظفراً كاملاً .

وكانت الحرب السودانية ثانية انتصارات الجيش المصرى فيما بين عامى (١٨٢٠م و١٨٢٢م) ، وأهم معاركها : كوركى ، وسنار ، وبارة .

ثم استنجدت تركيا بمصر فى الحرب اليونانية عام (١٨١١م - ١٨١٨م) ، وهذه الحرب وإن لم تكن تأتى بنصر حاسم لتألب الدول الأوروبية على تركيا ومصر ، لكنها كانت ميداناً لتدريب جيش مصر على الحرب الحديثة ، ومن أهم معارك تلك الحرب : الاستيلاء على جزيرة كريت وقبرص ، ومعركة نفارين البرية « كالاماتا » و« تربيوليتز » و« مسيو لونجى » و« آثينا » سنة (١٨٢٧م) .

ثم جاء دور الخلاف بين تركيا ومصر ، ونشبت حروب الاستقلال ودام القتال عامين (١٨٣١م - ١٨٣٣م) ، وبطل تلك الحروب القائد « إبراهيم باشا » ورئيس أركان حربه « سليمان باشا » ، ومن أشهر معارك حروب الاستقلال : الزراعة فى (١٤ أبريل سنة ١٨٣٢م) ، وعكاء ، ودمشق ، وحمص ، وحلب ، ثم معركة بيلان الكبرى فى (٣٠ يوليو سنة ١٨٣٢م) ، وقونية فى (٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢م) ، وتلتها معركة كوتاهية فى (٢ فبراير سنة ١٨٣٣م) ، وبعدها أصبحت جيوش محمد علي على مسافة قصيرة من الآستانة .

وهنا تدخلت الدول الأوروبية للتوفيق بين مصر وتركيا ، فاتفقتا فى معاهدة كوتاهية ، وبها أصبحت مصر وراثية فى ذرية محمد علي على أن يحكم سوريا كلها والسودان .

وبمقتضى هذه المعاهدة بسط محمد على سلطانه على دولة كبرى اشتملت على مصر والسودان وبلاد العرب وفلسطين وسوريا وولاية أطنة ، وبلغت مساحتها أكثر من نصف أوروبا وتزيد (١٥ مرة) عن مساحة فرنسا .

وهدأت تركيا بعض الوقت لكنها بعد قليل بدأت تستعد للأخذ بالثأر وتساعد فى إشعال الدسائس والثورة بين أهالى سوريا ، فلم يجد محمد على أمامه إلا أن يعلن استقلال البلاد أمام وكلاء الدول الأجنبية فى (مايو سنة ١٨٣٨م) .

وفى أوائل (١٨٣٩م) بدأت تركيا تتحدى رجال الحاميات المصرية فى شمال سوريا ، ثم احتلت بعض البلدان ، وأخيراً اصطدم الجيشان فى (يونيو سنة ١٨٣٩م) فى معركة « نزيب » الكبرى التى دارت فيها الدائرة على الجيش التركى ومنى بهزيمة شنيعة وظفر إبراهيم باشا ظفراً حاسماً على الأتراك .

ومرة أخرى تدخلت الدول الأوروبية وهددت محمد على بإعلان الحرب عليه إذا أصرّ على تقدم جيوشه ، وهدد الأسطول الإنجليزى الموانئ السورية وميناء الاسكندرية .

وأمام تهديد الدول انسحبت الجيوش المصرية المنتصرة من الشام وعادت إلى وادى النيل بعد أن أدت واجبها .

وفى هذه الحروب أظهر جنود الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا صفات حربية باهرة ، وعن هذه البطولة تحدث هذا القائد العظيم فقال : « إنه من المستحيل على أى جنود فى العالم أن يقوموا بأعمال بطولية خارقة مثل جنودى » .

وهكذا انتهت حروب الامبراطورية المصرية ، ولولا تدخل الدول الأوروبية لتغير وجه التاريخ ودارت الأحداث دورة أخرى .

وفى أيام محمد على أرسلت مصر إلى أوروبا نخبة من الشبان المصريين الذين شادوا النهضة المصرية مع مؤسسها الأكبر ، ومن هؤلاء : محمد مظهر ، وحماد عبد العاطى ، وعلى مبارك ، ومحمد شريف ، وعلى إبراهيم ، وغيرهم كثيرون من الأطباء والمهندسين ورجال القانون والعسكريين . . . إلخ .

* *

● عباس الأول وسعيد :

وفى عهد عباس الأول أرسلت مصر حملة لنجدة تركيا فى حربها ضد روسيا، وكانت القوات البحرية بقيادة أمير البحر « حسن الاسكندرانى باشا » والحملة البرية بقيادة الفريق سليم فتحى باشا ، وقد أدى الجنود المصريون واجبهم بكل إخلاص للدولة الشقيقة ، وكانت أهم المعارك التى خاضتها : معركة « سلسترة » والدفاع عن طابية العرب ضد غارات الروس المتتابعة .

وقد درج عباس باشا على سنة أبيه بإرسال البعثات العسكرية إلى معاهد

أوروبا، ولكنه فضل المعاهد النمسوية والبروسية عن الفرنسية والإنجليزية ، وممن أوفدهم : إسماعيل كامل ، وحامد أمين ، وعبد القادر حلمى ، وعثمان غالب، وعبد الله شكرى ، ومحمد راسخ ، ومحمد نصحى ، ويوسف شهدى ، ومصطفى نايل ، وغيرهم .

وفى عهد سعيد باشا أرسلت نجدة أخرى سنة (١٨٥٥م) ضد الروس ، انتهت بانتصار القوات التركية المصرية ، ثم عقد الصلح بين الطرفين .

وفى أيام حكم سعيد اشتركت إحدى الكتائب السودانية فى طائفة من المعارك فى المكسيك لما استنجد نابليون الثالث - امبراطور فرنسا - بعاهل مصر الكبير - وهكذا دوّن جنود مصر بطولتهم على رمال تلك البلاد النائية فى العالم الجديد .

وقد أوفد سعيد باشا البعثات العسكرية من الشبان المصريين ، ومنهم :

إبراهيم رأفت ، وأحمد راشد حسنى ، وعثمان رأفت ، ومحمد راتب ، ومصطفى فايد ، ويوسف النبراوى ، وغيرهم .

ويمتاز عصر سعيد بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تعد دوراً من أدوار الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث .

وترجع هذه النهضة إلى ميول سعيد باشا ذاته ، فقد كان ذا نزعة وطنية نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم ، ولازمته بعد أن تولاه ، وظهرت آثارها فى كثير من إصلاحاته وأعماله ، وقد كان يميل بجوارحه إلى خير المصريين ، ويبث فيهم روح الوطنية ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والإدارة ، بعد أن كانت من قبل وقفاً على الترك والشراكسة [1] .

وكان سعيد باشا ميالاً إلى الجيش وإلى ترقية الضباط المصريين ، وقد نقل عنه أحمد عرابى باشا خطبة ألقاها فى مأدبة فى ثكنة قصر النيل تدل على عواطف وطنية شريفة ، وقال مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين :

« . . . وحيث إنى أعتبر نفسى مصرياً ، فوجب علىّ أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً ، حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل » .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى بك - عصر إسماعيل - الجزء الأول ص ٢٣ .

إسماعيل باشا

ثم أقبل على حكم مصر المغفور له إسماعيل باشا ، فنهض بالبلاد نهضة كاملة اشتملت على الجيش والتعليم والصناعة والتجارة والزراعة والصحة العامة ، فارتقت أحوال البلاد فى جميع النواحى ، أليس إسماعيل الذى أنشأ المئات من دور العلم ، والمشافى ، ومد خطوط السكك الحديدية والطرق ، وشق الترع ، وأقام القناطر والسدود ، وأصلح الموانئ والمنائر ، ألم يكن إسماعيل العظيم الذى بعث رجال العلم والريادة لكشف منابع النيل ومجاهل القارة الأفريقية ، وأسس دولة أفريقية كبرى .

وجّه إسماعيل عنايته إلى جيش البلاد ، فرفع مستواه العلمى وزاد عدده وسلحه بمختلف الأسلحة الحديثة ، وأنشأ له المدارس الكبيرة ، وأقام له المصانع، وأوفد البعوث من رجاله للمعاهد الأوروبية ، وكوّن له هيئة من ضباط (أركان الحرب) تضارع هيئة أى دولة كبرى .

عنى إسماعيل باشا بتعليم الجيش ، ضباطاً وجنوداً ، ففى عهده أعيد تنظيم المعاهد العسكرية لكبار الضباط ولصغارهم ولضباط الصف والجنود ، وهكذا نراه يشيد عظمة مصر على دعائم العلم والتربية والقوة .

وفى أيامه استنجدت الدولة العثمانية به فى إخماد ثورة العسير واليمن سنة (١٨٦٣م - ١٨٦٦م) ، وفى حرب الجبل الأسود سنة (١٨٦٢م) ، وفى حرب كريت سنة (١٨٦١م -١٨٦٧م) ، وفى هذه الحرب ثبت الجندى المصرى أنه محارب من الطراز الأول ، وأنه حقاً حفيد هؤلاء المقاتلين الأشداء بناة الامبراطوريات .

وفى طليعة حملات الجيش المصرى : فتح دار فور ، والتوسع فى السودان الشرقى ، فأخضعت زيلع وهرر ومصوع ، كما أتم الخديو إسماعيل توسيع أملاكه السودانية من الجنوب ، وأعلن رسمياً بأن البلاد التى حول « غندوكرو » أصبحت فى حوزة مصر ، وسمى المدينة المذكورة « الإسماعيلية » ، وعين

الكولونيل « جوردون » حامياً لمديرية خط الاستواء سنة (١٨٧٤م) ، وعمل على مد نفوذ مصر حوالى بحيرة فكتوريا نينزا ، ثم أرسل حملة إلى بلاد الصومال الجنوبية لإدخال المناطق الواقعة على نهر جوبا فى قبضة مصر .

ولقد نجحت السياسة المصرية التى رسمها إسماعيل العظيم لتوسيع رقعة دولته نحو الجنوب إلى أقاليم خط الاستواء .

ومن حروب مصر : حرب الحبشة سنة (١٨٧٥م - ١٨٧٦م) ، ثم اشتراكها فى حرب الصرب سنة (١٨٧٦م) ، وفى الحرب الروسية التركية سنة (١٨٧٧م).

ولقد كان عهد إسماعيل من أعظم العهود العسكرية التى عرفها الجيش المصرى وتاريخ الجيش الإسماعيلى من أنصع صفحات الجيش .

● الجيشُ الظافر :

رأينا محمد على يضع الحجر الأساسى فى وحدة وادى النيل بعد أيام الفراعنة، فقد كان من نتائج فتح السودان فى عهده توحيد القطر الجنوبى بعد أن كان إمارات وقبائل غير متماسكة ، وعقب هذا الفتح المظفر أيضاً اكتشاف منابع النيل وانتشار العلم وامتداد العمران ، بل وازدهار الحضارة هناك .

ولما تولى إسماعيل حكم مصر تابع سياسة جده فى وادى النيل الجنوبى ، فقضى على النخاسة واكتشفت مجاهل الصحارى السودانية وفتحت البحيرات الاستوائية للملاحة ، وأخضعت البلاد الواقعة جنوبى « غندوكرو » ، ورفع عليها العلم المصرى يوم (٢٦ مايو عام ١٨٧١م) ، وسميت « الإسماعيلية » ، ثم ضمت مديرية خط الاستواء ، ونصب عليها حاكماً من قبل مصر ، وضمت أوغندة أيضاً وعقدت مع ملكهم معاهدة صداقة ، وكان إسماعيل يحدد لقائد الحملة المصرية الأهداف التى ينبغى تحقيقها ، فكتب إليه يقول : « لا تواصل الزحف إلى الأمام بل استعمر البلاد وعلم السكان واجعل القبائل موالية لك » .

وفى أيام إسماعيل استقرت السيادة المصرية على جميع شاطئ البحر الأحمر الغربى إلى ميناء بربرة (فى الصومال البريطانى اليوم) .

وبعد أن حصل على تنازل تركيا لمصر عن مينائى سواكن ومصوع (فى إريتريا اليوم) بمقتضى فرمان (٢٧ مايو سنة ١٨٦٦م) ، عيّن اللواء « ممتاز باشا » والياً

على جميع ساحل أفريقيا من السويس إلى رأس جردفوى (الصومال الإيطالى) فرفع العلم المصرى على « بلهار » فى (١٦ يناير عام ١٨٧١م) ، ثم حصل على تنازل تركيا عن زيلع لمصر فى يونيو عام (١٨٧٥م) ، وقد اعترفت انجلترا بحق مصر فى هذه المناطق ، فعقدت معاهدة فى (٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧م) وقعها قنصل انجلترا العام فى مصر عن الجانب الإنجليزى ومحمد شريف باشا عن الجانب المصرى ، وتقرر فيها أن جميع ساحل أفريقيا الشرقى لغاية رأس جردفوى تملكه مصر (١) .

وقد أجمع المؤرخون على أن ضم زيلع وبلهار وبربرة وساحل أفريقية الشرقى حتى رأس جردفوى إلى الدولة المصرية قد أثمر نتائج رائعة لم يحققها أى احتلال أوروبى آخر فى أفريقيا .

وقد حرص رجال القسم الجغرافى من ضباط هيئة أركان حرب الجيش المصرى على تسجيل هذه الممتلكات المصرية فى خريطة عرضت فى المعرض الجغرافى الدولى الذى عقد فى البندقية عام (١٨٨١م) .

ولكن السياسة العدائية الموجهة ضد مصر فى أخريات القرن التاسع عشر كانت لا تريد لها هذا التفوق الإفريقى ، فانتهزت فرص الحوادث عقب عام (١٨٨٢م) وبدأت تنفذ سياسة البتر وأبعدت بالتدريج السيادة المصرية عن الأقاليم الاستوائية وشرقى أفريقيا ومعظم أنحاء السودان .

* *

وقد نهض إسماعيل بالتعليم ، فأنشأت مدارس الحقوق ودار العلوم والمدارس الثانوية ومعاهد البنات ، وكان التعليم فى معظم المدارس مجانياً ، وبلغت ميزانيته فى عهده حوالى (٧٥٠٠٠ جنيه) ، وفى أيامه أنشأت مئات من منشآت الرى والزراعة والصناعة ، ومدت خطوط السكك الحديدية والتلغراف ، ونظم البريد ، وتقدمت الشئون الصحية وازدهرت المدن بالمبانى الحديثة ، وظفرت الحركة الوطنية ، ودعمت الحياة النيابية ، وتطورت الحياة الاجتماعية .

ولولا تدخل الدول الأوروبية فى شئون مصر لما تسرب نفوذها إلى أعمال

---

(١) فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء ، جزء ٢ ص ٤٩٠ .

الحكومة ، ولما انتهى الحال إلى حوادث عام (١٨٨٢م) ، ولما تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى وضع دعامته محمد على العظيم .

* *

● الظفر المصرى فى السودان :

وما كادت الحركة العرابية تغلب على أمرها حتى اشتعلت مراجل الثورة فى السودان بزعامة المهدى ، ونجح كل النجاح وأقام امبراطوريته السودانية ، ثم لعبت السياسة دورها ، فسحبت القوات المصرية من شطر وادى النيل الجنوبى بالرغم من معارضة الوزير الوطنى محمد شريف باشا الذى قدم استقالته .

ومنذ تم هذا الانسحاب بدأت سلسلة متواصلة الحلقات من المعارك فى أنحاء السودان كان النصر فيها متبادلاً بين المصريين ...

السودان عام (١٨٩٦م) ، وسنذكر أهم معارك الجيش المصرى فى تلك الحملة

الاستيلاء على عكاشة فى (٢٠ مارس سنة ١٨٩٦م) .

معركة فيركه فى (٧ يونيو سنة ١٨٩٦م) .

معركة الحفير فى (١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٦م) .

معركة أبو حمد فى (٦ سبتمبر سنة ١٨٩٧م) .

معركة دنقلة فى (٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧م) .

معركة العطبرة فى (٧ أبريل سنة ١٨٩٨م) .

معركة أم درمان فى (٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م) .

معركة القضارف فى (٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٨م) .

معركة جديد (أم دبريكات) فى (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩م) .

هذه أهم معارك حملة إعادة فتح السودان ، فعاد الأمن إلى تلك البلاد الجميلة ومع ذلك فقد جنحت بعض القبائل إلى الثورة بدوافع شتى ، فكانت تخمدها وحدات الجيش المصرية والسودانية ، ومن تلك المعارك :

معارك النيل الأزرق بما فيها كسلا وسنار والجزيرة .

داوريات بحر الغزال ، معارك جيروك ، معركة نيام نيام ، حملة تلودى ، معركة الكتفية ، معركة علياب بمنجلا ، معركة أجاكير ، معركة الطير الأخضر ، معركة مندل والصباح . . . إلخ .

فما الذى يمكن أن يقال بعد ذلك عن كفاءة الجندى المصرى وبطولته فى ميادين القتال ؟ فلم يكن فتح السودان حملة قصيرة العمر ، بل كان سلسلة من المعارك الدموية ضد مقاتلين من الأبطال ، معارك دارت فى بقاع شتى من السودان ، فى الصحراء وفى الجبال وفى السهول وفى الغابات وعلى ضفاف النيل ، ولولا الجندى المصرى وطبيعته لما كتب التاريخ فى صفحاته التى نقرأها اليوم ، فهو جندى قوى العضل باسل صبور على المكاره يتحمل أشد المتاعب ، وليس هذا بعجيب لأنه نشأ فى أمة من المكافحين الأشداء . .

* *

● الحرب العالمية الأولى :

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى امتحنت من جديد روح الجيش المصرى ، فاشتركت المدفعية المصرية مع القوات البريطانية فى رد هجوم الأعداء من قنال السويس ، واستشهد بعض أفرادها دفاعاً عن وطنهم ، وعاونت بعض وحدات الجيش المشاة (الكتيبة الثانية المشاة) رد غارات الأتراك فى أنحاء سيناء الجنوبية فى العمليات الحربية التى نشبت فى عام (١٩١٥م) .

وأنقذت حاميتها المصرية مدينة الطور .

وفى الصحراء الغربية اشترك جنود الأشغال العسكرية فى الأعمال الفنية الخاصة بالمياه والاستحكامات ، وقصدت وحدات أخرى من هذا السلاح إلى ميدان الدردنيل .

واشتركت الكتيبة السادسة فى حملة استقلال الحجاز (سبتمبر عام ١٩١٦م) مع وحدات من المدفعية المصرية ، فأدى الجنود واجبهم ببسالة تحدثت عنها التقارير الرسمية التى كتبت عن الحملة بالتقدير والثناء ، وقام الجيش بأعمال تكللت بالنجاح فى عمليات دارفور التى انتهت بهزيمة السلطان على دينار .

الملك فؤاد الأول

ولم تكن حوادث عام (١٨٨٢م) لتثبط همة مصر وعزيمتها ، فقد جاهدت وناضلت وارتفعت أصوات أبنائها البررة ليخلصوها مما ألم بها ، وكانت جهود مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وسعد زغلول قد أثمرت وأيقظت روح الشعب التى لم تخمل إلا فترة قصيرة ، إننا نكون قد ابتعدنا عن المبادىء الطبيعية والتاريخية إذا غالينا فى استغلال المسائل الوطنية ، وقلنا : إن الظفر كان دائماً من نصيبنا ، فما من أمة إلا وقد مرت عليها ظروف متقلبة من نصر مجيد إلى هزيمة مرة وإلى تعادل ، لكننا كنا نفيد من دروس تلك الهزائم لنتغلب بها فى أدوار حياتنا على الصعاب .

وقد نهضت مصر نهضة سياسية اجتماعية شاملة ، ففى أيام حكم فؤاد ظفرت بتحقيق بعض غاياتها الوطنية ، وتقدمت أحوال البلاد الاقتصادية ، وأنشأت مئات المدارس وجامعة فؤاد الأول ، وازدهرت المدن بالمشروعات العمرانية وكثرت الجمعيات العلمية ، وأصبح لمصر مجلس نيابى وممثلون سياسيون فى دول العالم وخطت مصر خطوات واسعة لتتبوأ مكانتها فى طليعة أمم العالم .

ويمتاز عصر فؤاد الأول بنهضة علمية واسعة النطاق ، ففى عهده أسس مجمع اللغة العربية الملكى ، ونهض التعليم الحر والزراعى والأولى ، وفتحت المدارس الثانوية والعالية لتعليم البنات وأرسلت البعثات العلمية والفنية إلى الجامعات الأوروبية والأمريكية، وكسب العلماء والمؤلفون والناشرون رعاية الملك وتشجيعه، وتقدمت الفنون الجميلة وتطورت الموسيقى وأنشأت لها المعاهد وعقد لها أول مؤتمر للنهوض بالموسيقى الشرقية ، وازداد عدد المتاحف الفنية والتاريخية ، وأخرجت دار الطباعة الحكومية عدداً وفيراً من الكتب العلمية والمطبوعات الفنية، وزاد عدد المستشفيات فى البلاد .

وفى أيام الملك فؤاد تطور التعليم فى الأزهر ، ونظمت الجامعة الأزهرية وأسست مدينة للأزهريين ، ونالت الجماعات الخيرية الكثير من فيض كرمه .

وفى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول أدخلت على الجيش الأساليب الحديثة من التدريب ، فارتقى مستوى التعليم العسكرى ، وأرسلت البعثات الحربية إلى الخارج لتتلقى المستحدث من علوم الحرب ، وشيدت المنشآت الحديثة وزودت بجميع وسائل الرفاهية ، وتقدمت الألعاب الرياضية فى الجيش .

وفى أيام الملك فؤاد أيضاً أنشئ مجلس الجيش للإشراف على أحوال وزارة الحربية والبحرية ، وكان يعقد جلساته برئاسة وزيرها وعضوية الوكيل ، ومفتش الجيش والمدير العامل لكل من مصلحة الحدود وحفر السواحل وأحد ضباط الجيش المتقاعدين برتبة اللواء .

وفى أواخر عام (١٩٣١م) تألفت نواة لسلاح الطيران الحربى ، واحتفل بوصول السرب الأول فى مطار ألماظة الحربى احتفالاً عسكرياً رائعاً كان على رأسه المغفور له الملك فؤاد الأول .

* * *

جهاد مصر

جاهدت مصر عشرات السنين حتى فازت ببعض أمانيها ، وهى لا تقف اليوم قانعة ، بل هى دائبة على استكمال البقية لتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين دول العالم وأبناء وادى النيل لا يهدفون إلا للمثل العليا .

وفى الحرب العالمية الثانية اشتركت مصر فى غمارها بصفة شبه رسمية ، فقد كانت دولة غير محاربة ، ولكن ساهم جيشها بجهود لا تقل عن جهود أمم كبيرة، ساهم جيشها الفتى على حداثة عهده بالتسليح الحديث وتنظيمه الجديد الذى بدأ به عام (١٩٣٨م) فى الدفاع عن الوطن المصرى ، براً وبحراً وجواً .

بيد أن أبناء سمالوط ونجع حمادى وقويسنا وأسيوط والقاهرة وأسكندرية قوم متواضعون أدوا جميعاً واجبهم فى صمت وهدوء ، ودافعوا عن الصحراء الغربية والموانئ المصرية والسكك الحديدية وقناطر النيل وقنال السويس .

فقد اشتركت أسراب سلاح الطيران الملكى المصرى فى وقاية الأجواء المصرية فوق سيناء والدلتا والصعيد ، بل وتجاوزتها إلى القارة الأوروبية والأسيوية وأواسط أفريقية ؟ ودافعت النسور المصرية عن القاهرة والبحر الأحمر ، وحمت قوافل الحلفاء فى البحر المتوسط واستكشفت غواصات الأعداء .

ودافعت الوحدات المصرية من مختلف الأسلحة عن مرسى مطروح والضبعة ومواقع الحدود ، وقد تحملت كتيبة مصرية فى السلوم الصدمة الأولى من الأعداء إلى أن اضطرت إلى الانسحاب إلى سيدى برانى وسيوة بعد تكبدها خسائر فى الأرواح والعتاد .

كما دافعت آليات الخيالة الميكانيكية عن مواقع كثيرة فى الصحراء الغربية والسواحل المصرية ومراقبة قوات الأعداء فى كل مكان .

وحمت قوات مصر خطوط المواصلات والقناطر والخزانات ومرافق البلاد فى المدن الكبيرة والثغور والمطارات إلى وادى حلفا .

ولا أدرى إذا كنتم تعرفون أن الدفاع الجوى عن القطر المصرى بأجمعه قام على أكتاف الجندى المصرى ، فكانت وحدات الأنوار الكاشفة والمضادة للطائرات

هى التى قامت وحدها ، نعم وحدها فقط برد طائرات الأعداء عن سماء مصر ، والجنود المصريون هم الذين دافعوا وحدهم عن قنال السويس طيلة مدة الحرب ، هذا الشريان الذى يحدثوننا دائما عنه بأنه أهم طرق المواصلات البحرية فى العالمين القديم والحديث . .

وقام رجال سلاح المهندسين الملكيين بإزالة القنابل التى ألقتها طائرات العدو ، وبرفع الألغام . . بل وأقاموا التحصينات والاستحكامات البرية ، ومدوا أنابيب للمياه أضف إلى ذلك أنهم أنشأوا كثيراً من خطوط السكك الحديدية عبر الصحراء .

هذا قليل من جهود كبيرة اضطلعت بها أسلحة الجيش المصرى ، وبهذه الجهود تتبوأ مصر مكانها الذى تستحقه بجدارة وبحق .

* * *

لنذكــر دائماً

* رأينا فى الصفحات السابقة كيف مرت بمصر عصور زاهية تمتعت خلالها بنعيم الحرية والاستقلال ، وكيف قاسى المصريون من غدر المحتلين وحقدهم وغيرتهم : من الهكسوس والآشوريين والفرس واليونان والرومان والعثمانيين. . . إلخ ، ومع ذلك خلدت مصر بالرغم من المحن والأهوال التى لا تكاد تتصور. . ولم تتهكسس مصر أو تتأشور أو تتأغرق . . . إلخ ، وينبغى أن لا ننسى أنه فى كثير من حقبات الاحتلال كان سلطان المحتلين لا يتغلغل فى صميم وادى النيل ولم يجاوز شواطىء البحر الأبيض المتوسط . .

وسبب ذلك : هو احتفاظ أبناء وادى النيل بذاتيتهم وخصائصهم ومناعتهم ضد الفناء وعدم قبول الذوبان والتلاشى فى غيرهم من أقوام الفاتحين ، ولهذا مرت بمصر خطوب لو حدثت لغيرها من الأمم لذابت وانقرضت كما انتهت فينقيا وآشور ورومة ، ولكنها نجت وخلدت واستعصت على الفناء .

هذا فى تاريخ مصر القديم ، أما فى تاريخها الحديث : فقد رأيناها تنجو من الاحتلال الفرنسى العقيم بقوة روح شعبها ، وعادت جيوش نابليون من حيث أتت تجر أذيال الخيبة والفشل .

وفى أيام محمد على العظيم قاومت مصر كل الدول الأوروبية ووقفت لظفرها بالمرصاد وهددتها بالقوة ، بل هاجمت حصونها لكى لا تتنفس الصعداء .

* كانت الدول العظمى فى العصرين القديم والحديث تتفادى مواجهة جيوش مصر قبل أن تجند عليها الدسائس والخيانات كما فعل الفرس والأغريق والرومان والعثمانيون والفرنسيون والإنجليز . . . كل هؤلاء تغلبوا على مصر عن طريق الخيانة والدسائس ، فعل هذا جميع الغزاة كما فعل السلطان سليم مع الأمير خير بك نائب حلب ، ومن أجل هذا رأينا الدول تفزع من فتوح محمد على ، فتسرع بعقد المؤتمرات ، وتغتال أسطول مصر غدراً بغير قتال فى معركة نفارين ، وفى معاهدة لندن وغيرها ، فتحرم مصر ثمار انتصاراتها .

والتاريخ يعيد نفسه فى أيام إسماعيل العظيم ، فبمجرد تأسيسه الدولة المصرية أو النيلية وشق قناة السويس تدخلت انجلترا والدول الكبرى بحجج كثيرة ، ثم أوغرت صدر السلطان ضده فيعزله ، ثم تتآمر الدول فيما بينها بالكيد والنيل من سمعته بكل الأساليب إلى أن تنتهى الحوادث باحتلال عام (١٨٨٢م) .

ولكن المصريين قوم نزاعون إلى النضال إذا ساءت الحال واشتد البلاء ، مع أنهم ليسوا بأمة ثورة ورعونة تخصصت للحرب والقتال كأسبرطة أو بروسيا .

* ولم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى هب المصريون هبة واحدة فى وجه انجلترا ، وهذا الماريشال ويفل يصف كيف قامت هذه الثورة ويقول :

« إن الرخاء السائد إذ ذاك كان يجب أن يكون من أسباب السكينة لا من أسباب الثورة ، وهناك حقيقتان :

الأولى : أن الحرية والاستقلال ليسا غريبين عن مصر .

والثانية : أن المظاهر فى مصر كثيراً ما تخدع الناظر والباحث ، فهناك دائماً أشياء أخرى فى الأعماق غير تلك التى تطفو على السطح » .

ويظاهر عبارة الماريشال ويفل من وجه ما قول عالم بالآثار : إن مصر فى تاريخها الطويل إما أمة محتلة ترسف فى أغلال الفاتحين وترنو إلى الحرية والاستقلال ، وإما امبراطورية تتطلع إلى الفتح والغلب وتسوق جيوشها ذات اليمين وذات الشمال ، ولا وسط فى تاريخها بين هذين .

* ابتليت مصر منذ القدم بالغيرة والعداوة والافتراء ، فكانت ترسل اليونان علماءها ورجالتها ليقفوا بأنفسهم على حضارة مصر وعلومها لينقلوها إلى بلادهم وكانت رومة بالنسبة إلى مصر أغير من النساء ، إذ كانت تعلم أنها لن تثبت لها دولة ما دامت مصر ذات أسطول وجيش ، وفى صنيع جميع الدول التى احتلت مصر شواهد على صدق هذه الحقيقة [١] .

* خلدت مصر لأن معنويتها قوية جداً ، وهذه الصفة تبدو فى الشعوب كما تبدو فى الأفراد سواء بسواء ، وأقرب مثل لها الطليان واليونان فى الحرب العالمية

---

(١) من مقال للأستاذ عبد اللطيف قاسم فى مجلة « الإصلاح الاجتماعى » .

الثانية ، فقد امتلأ تاريخ اليونان بالبطولة فيها ، كما خلا تاريخ إيطاليا من كل فخر فيها ، وينبغى مراعاة الفرق بين الأمتين فى العدد والموارد من كل وجه إلا من وجه واحد ، هو هذه الفضيلة أو السجية ، وهما مع ذلك أمتان قديمتان ، ولكل منهما مدنية وحضارة مشهورتان .

وتبدو هذه الفضيلة فى أروع مظاهرها ومصر مغلوبة معذبة ، وقف « دارا » ملك الفرس فى معبد بتاح بجوار تمثال رمسيس الثانى يقترح على كهنة مصر أن يقيمو تمثاله إلى جانبه ، فجابهه كاهن منهم بصراحة مفضلاً عليه رمسيس ، إذ قال :

« إنك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تبل مثل بلائه » .

فتلقى « دارا » اللطمة بحلم عظيم وأجاب : « سأفعل كما فعل إذا عشت كما عاش » .

وهذه المعنوية من وحى الفطرة ، كما أملتها غريزة حب البقاء والمحافظة على النوع ، وهى إيمان بالنفس وبالعنصر .

* أليس من العجب أن تنجو مصر من نظام الحكم الرومانى ، وقد دام حوالى ستمائة عام ، أليس من العجب أن يباد أعداؤها وأن تسلم هى من الفناء ، وأن يشهد التاريخ أنها كانت أقوى وأثبت جذوراً فى الأرض من قاهريها ؟ هؤلاء القاهرون الذين تفننوا فى إذلالها وسحقها انتقاماً منها من جهة ، ولقتل روحها من جهة أخرى ، لقد كان المصريون إذا اشتد البلاء بهم اعتصموا بالمصابرة ونزعوا إلى النوازع الصوفية وقاية لأنفسهم من الفناء .

وقبل أن نختم هذا الكتيب نأتى بكلمة للمؤرخ الكبير « شارل سينيوبوس » فى كتاب حديث له صدر بعد الحرب الأخيرة وعنوانه :

(Histoire sincere de la nation francaise)[1] :

" La france n'a jamais ete un pays ou l' on ait recrute facilement des volontaires, les guerriers y'ant toujours ete d'une origine

---

(١) طبعة عام (١٨٤٥م) ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

etrangere et jusqui a la Revolution les armees y ant ete formees en partie d'etrangers " .

« إن فرنسا لم تكن فى يوم من الأيام بلداً يمكن أن يجمع فيه بسهولة جيش من المتطوعين ، وقد كان المحاربون فى فرنسا دائماً من أصل أجنبى ، وإلى عهد الثورة كان جزء من جيوشها مكوناً من الأجانب (كالألمان والسويسريين والهولنديين والأسبان) .

ذكرنا هذا لأن بعض المؤرخين الذين يتلمسون مواطن الضعف فى تاريخ مصر يقولون : إن معظم الجيوش التى انتصرت فى تاريخها الطويل لم تكن مصرية إلا بالاسم ، بل كانت من العرب والأكراد والمغاربة والسودان وغيرهم من العناصر الأجنبية والجنود المرتزقة .

والرد على هؤلاء المتعصبين ليس عسيراً فى شىء ، فقد كانت جيوش مصر الظافرة مصرية بحتة حتى نهاية العصر الفرعونى ، وأما فى العصر الإسلامى فقد كانت طبيعة الدولة الإسلامية كلها تقضى بأن يتظافر أبناء ديار الإسلام فى الدفاع عنها ، كما يشترك اليوم أهل كندا واستراليا ونيوزيلندة وجنوب أفريقية مع أبناء الجزر البريطانية فى الدفاع عن كيان الامبراطورية ، فمصر كانت فى العصور الوسطى من أهم دعائم الامبراطورية الإسلامية ، وكان طبيعياً أن يشترك فى الدفاع عنها جنود المسلمين من جميع الأجناس تحت لواء أمرائها وحكوماتها المختلفة ، فقد كانت مصر فى ذلك الوقت قلب العالم الإسلامى النابض - مثلها بالنسبة إليه - مثل الجزائر البريطانية بالنسبة إلى الامبراطورية البريطانية فى العصر الحديث .

* لقد ظفرت مصر وخلدت على مر الدهور ، لأن أبناءها أرادوا ذلك ، فمعنويتهم عميقة فى نفوسهم ، ولو كانت قوتها أضعف من هذا لتلاشت وفنيت، شأنها فى ذلك شأن الدول الكبرى التى بادت وستبيد ، فعلينا أن نرجع إلى ماضينا ونذكره ، لأن الماضى مصدر للإلهام لا للمباهاة ، لنتمكن من الكفاح والنضال فى جميع أدوار حياتنا .

تم بحمد الله

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

* * *

د . عبد الرحمن زكى [1]
١٩٠٤ - ١٩٨٠

كان مولد عبد الرحمن زكى فى ١٩ يولية سنة ١٩٠٤ فى قرية أريجى بالقرب من مدينة المسلمية بالسودان ، حيث التحق والده عبد الحميد الضابط بالجيش المصرى بالحملة العسكرية لاستعادة السودان سنة ١٨٩٥ ، واشترك فى معظم معاركها .

وكان عمه محمود حلمى ضابطاً أيضاً بنفس الحملة وتوفى هناك سنة ١٩٠٠ .

وانتهت مهمة والده بالسودان عام ١٩٠٨ بعد تعرضه لأزمة سياسية كادت تعرضه للإعدام .

ودخل عبد الرحمن الابن الكلية الحربية سنة ١٩٢٣ ، وتخرج منها ملازماً أول سنة ١٩٢٦ ، وكان شغوفاً بالقراءة والاطلاع إلى درجة كبيرة ، وكثير الشراء للكتب ، فكان نصيبه العمل بفرع الأشغال العسكرية ، وسافر إلى أوروبا فى زيارة موسعة لمعظم الدول الغربية فى سنة ١٩٣٢ ، وبدأ يتنبه إلى وجود متاحف عسكرية فى معظم المدن والعواصم ، فتذكر طلباً كان قد تقدم به إلى السلطات العسكرية الإنجليزية بمصر لإنشاء متحف حربى بالقاهرة .

وقد اعترض على الاقتراح حين ذاك المفتشون البريطانيون الذين لم يرقهم إظهار الأمجاد العسكرية للجنود المصريين ، وظلت هذه الفكرة عالقة بذهنه وجزءاً رئيسياً من اهتماماته إلى أن عاد فكرر طلبه مرة أخرى سنة ١٩٣٧ ، فأسندت القيادة إليه تنفيذ الاقتراح وتعيينه مديراً للمتحف الحربى فى نفس السنة ، كما أصدر بعد ذلك بعام واحد كتاباً كبيراً يحتوى على خمس دراسات عن تاريخ

---

(١) د. عبد الفتاح الريدى : ينابيع الفكر المصرى المعاصر .

الأورطات المشاة للبنادق والماكينات ، وأصدرت وزارة الحربية الكتاب فى طبعة أنيقة مصورة تحمل اسم اليوزباشى عبد الرحمن زكى سنة ١٩٣٨ .

وفى نفس الوقت كان يتردد على الجامعة الأمريكية بالقاهرة فاستهوته محاضرات العلامة كريزويل صاحب المراجع الضخمة عن الآثار الإسلامية ، وتأثر باتجاهه فى التفكير ، وتقدم لدراسة الآثار بمعهد الآثار الإسلامية بالقاهرة، وحصل على الدبلوم سنة ١٩٣٩ ، ولم يفتتح المتحف العسكرى بصفة رسمية سوى سنة ١٩٤٨ ، وظل عبد الرحمن زكى مديراً له حتى سنة ١٩٥٢ عند قيام الثورة المصرية ، فاحتل موقعه عندئذ يوسف السباعى لانشغاله بإعداد رسالته للدكتوراة التى أشرف عليها زكى محمد حسن عن موضوع السيف فى الإسلام من وجهة النظر الفنية ، وحصل على درجته فى الدكتوراة عام ١٩٥٥ من جامعة القاهرة .

وفى عام ١٩٧٩ ظهر كتاب شامل فاخر الطباعة والتصوير بلندن (دار أسكولار) عن الأسلحة والدروع بقلم عدد من كبار رجال الآثار ، وأشرف على إصداره روبرت الجود ، وعنوان الكتاب « الأسلحة والدروع الإسلامية » ، وفى صفحته رقم ٢٠١ بحث مصور للدكتور عبد الرحمن زكى عن الأسلحة العربية فى العصور الوسطى ، ويشير التعريف بصاحب البحث إلى أن الدكتور عبد الرحمن زكى مدير مكتبة القوات المسلحة المصرية يعتبر حجة فى تاريخ العصور الوسطى الإسلامية ، وهو أستاذ غير متفرغ بكلية الآثار المصرية ، ومؤلف العديد من الكتب والدراسات حول الأسلحة والسيوف الإسلامية .

وفى هذا البحث القيم يتحدث عبد الرحمن زكى عن سيوف الرسول والصحابة وقواد المسلمين المعروفة باسم السيوف المباركة ، ومن أهم المراجع التى ذكرها كتاب شفار تزلوره عن أسلحة العرب القدماء الذى ظهر بألمانيا (ليبزج سنة ١٨٨٦) ، واعتمد عبد الرحمن زكى على دراسات الكندى الفيلسوف العربى عن السيوف التى أشار فيها الكندى إلى أن أفضل السيوف العربية ما

جاء منها من بلاد اليمن ، وقد نشر مخطوطة الكندى عن السيوف المستشرق النمساوى فون هامر بورجشتال (١٧٧٤ - ١٨٥٦) ، واسمها السيوف وأجناسها .

وكان عبد الرحمن زكى قد شرع فى إخراج عدد من الكتب عن السيف عقب انتهائه من رسالة الدكتوراة سنة ١٩٥٥ ، فظهر كتابه عن السيف فى العالم الإسلامى ومعارك حاسمة فى تاريخ مصر الإسلامى والسلاح الإسلامى ، كما أصدر كتابه الشامل عن سيناء أرض المعارك ، فتكلم فيه عن أهمية سيناء الجغرافية وخلال العصور والمدن القديمة فى سيناء ، وآثار سيناء بما فيها الآثار الإسلامية والقلاع المختلفة ، والآثار المسيحية فى دير سانت كاترين ، وتابع تاريخ سيناء فى العصر الإسلامى وأيام المماليك ، وفى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وفى القرن العشرين حتى فترة الاعتداء الثلاثى .

وله قبل ذلك أيضاً كتاب هام عن « معركتى دمياط والمنصورة » ، ولكنه اتجه عقب كتابه عن سيناء إلى الاهتمام عن المدن الإسلامية مثل القاهرة والفسطاط وغرناطة ، فألف عدة أجزاء عن قاهرة المعز ، وصار عضواً هاماً بالمجمع المصرى العلمى وبجمعية الآثار القبطية وبلجنة الآثار بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وقام بتدريس الآثار الإسلامية فى بغداد وفى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ورأس تحرير الموسوعة العربية الميسرة منذ عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٨ ، وكان من مؤسسى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٤٧ ، فشارك فى إدارتها وفى إنشاء مكتبتها ومجلتها ، وكان عضواً بمجلس إدارة الجمعية الجغرافية ونشر بمجلتها ومجلة الجمعية التاريخية أبحاثاً مطولة عن جوانب مختلفة فى مصر وتاريخها ، ثم شارك فى العديد من المؤتمرات الأثرية والتاريخية فى أنحاء العالم ، وقدم بحثاً عن تأثير العمارة الإسلامية فى مبانى ساحل أفريقيا الشرقى ، واتجه بقوة فى الستينات نحو الدراسات الأفريقية ، ونحو قضايا الفكر الإسلامى وأحوال المسلمين ، فاشترك فى ندوة ألفية عام ١٩٦٩ ، وقدم بحثاً عن توسيع مدينة القاهرة ، واشترك فى

مؤتمر تاريخ شبه الجزيرة العربية بمدينة الرياض عام ١٩٧٧ ، وأصدر موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام سنة ١٩٦٩ ، وكتاباً آخر عن القاهرة مغارة الحضارة الإسلامية سنة ١٩٧٩ قبل وفاته بعام واحد ، وكان فيما يبدو من اسم السلسلة التى نشر فيها أول كتبها عن القاهرة تحت عنوان حواضر العالم الإسلامى ، كان فيما يبدو يزمع إخراج مجموعة كبيرة من المؤلفات يخص كلا منها بإحدى العواصم الإسلامية .

وأصدر كتاباً عن أعلام الدول العربية والإسلامية سنة ١٩٥٨ ، وخمسة أجزاء سنة ١٩٥٨ أيضاً تحت عنوان المسلمون فى العالم اليوم ، أولها عن أفريقية الإسلامية وثانيها عن آسيا الإسلامية ، وأصدر كتباً عن « الإسلام والمسلمين » فى أفريقيا ، والإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، وتاريخ انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا ، وما أنشأه العرب من المدن على ساحل شرق أفريقيا .

أما فى الآثار الإسلامية فقد عرف عبد الرحمن زكى بمؤلفاته عن الحصون والقلاع الإسلامية مثل قلعة صلاح الدين (الجبل) ، وحصون الإسكندرية ورشيد والشام وفلسطين وسيناء . . وتناول بالتفصيل عمارة الجامع الأزهر وما يجاوره من عمائر الفاطميين والمماليك والعثمانيين .

ومن الأجانب الذين أثروا تفكير عبد الرحمن زكى دزمون استيوارت مؤلف كتاب القاهرة الذى ترجمه إلى العربية يحيى حقى ، وكذلك العلامة تشارلز كريزويل (١٨٧٩ - ١٩٦٩) .

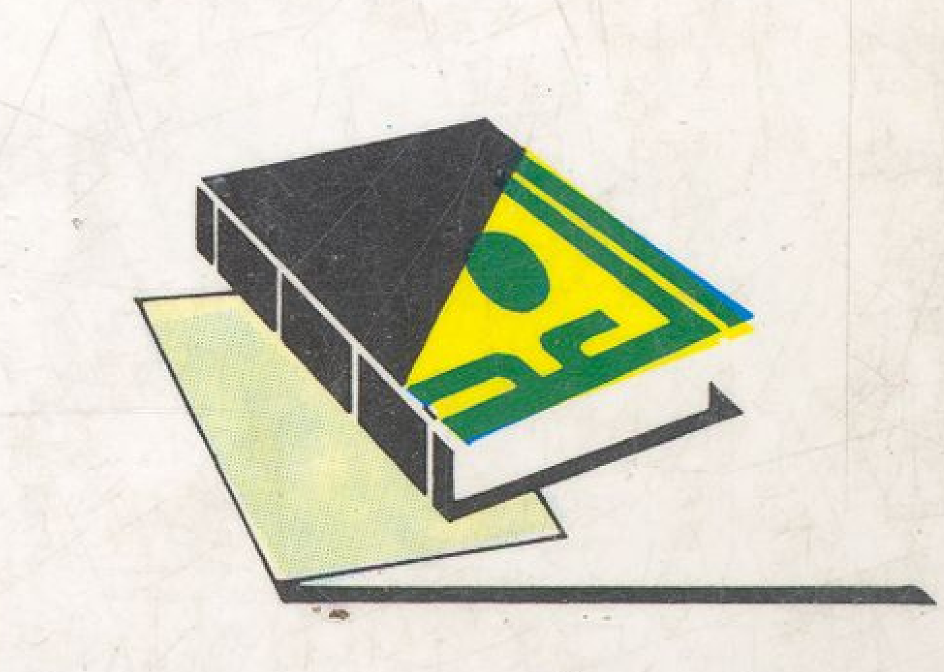
واهتم عبد الرحمن زكى بتأكيد دور أوجست ماريت الذى اكتشف معبد ترابيس ومقابر عجول أبيس ، وألف موضوع أوبرا عايدة التى لحنها فيردى ، وتم أداؤها فى الاحتفال بافتتاح القناة بدار الأوبرا المصرية للمرة الأولى فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ ، وصار أوجست ماريت بعد ذلك أميناً لقسم الآثار المصرية فى متحف اللوفر .

كذلك اهتم عبد الرحمن زكى بتأكيد اسم المستشرق أدوارد وليم لين (١٨٠١

- ١٨٧٦) ، وبحفيد أخيه المستشرق ستانلى لين بول (١٨٥٤ - ١٩٣١) ، والأول وضع قاموساً للألفاظ العربية (عربى - إنجليزى) ووصف مصر ، وتبقى المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم ، وترجمة ألفَ ليلة وليلة ، ومختارات من القرآن والمجتمع العربى فى العصور الوسطى ، والقاهرة منذ خمسين عاماً ، والكتاب الأخير أخرجه الحفيد سنة ١٨٩٦ ، كما أكمل قاموسه العربى ، وأضاف إلى المكتبة مؤلفات هامة فى الآثار الإسلامية مثل تاريخ مصر فى العصور الوسطى ودراسات داخل مسجد ، والفن الإسلامى فى مصر سنة ١٨٨٦ والنقود الإسلامية بدار الكتب المصرية ، ورسوم قاهرية ١٨٩٥ ، وقصة القاهرة سنة ١٩٠٢ .

وعندما يذكر عبد الرحمن زكى أدباء القاهرة تراه يؤكد شخص محمود سامى البارودى وحافظ إبراهيم كعاملين بالجيش وشعراء ، ولا يشير إلى اسمى العقاد وطه حسين بين المعاصرين ، ويؤكد إسماعيل مظهر فى رأس القائمة وينسى إبراهيم عبد القادر المازني ، ولعل فى هذه الإشارة الأخيرة العابرة ما يكشف عن موقفه الأدبى وخلفياته الفكرية .

* * *



طباعة. نشر. توزيع

٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة

ت : ٣٢٥٠٢٠٢ - ٣٢٥٠٩٥٧